سورة المجادلة

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿١﴾ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ **نزلت الآية في خولة بنت حكيم، وقيل:** خولة بنت ثعلبة، **وقيل:** خولة بنت خويلد، **وقيل:** اسمها: جميلة. وكانت امرأةَ أوس بن الصامت الأنصاري أخي عبادة بن الصامت ﷺ، فظاهر منها، وكان الظِّهار في الجاهلية يوجب تحريمًا مؤبَّدًا، فلما فعل أوسٌ ذلك جاءت امرأته إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن أوسًا أكل شبابي ونثرتُ له بطني[1]، فلما كَبِرتُ ومات أهلي ظاهر مني! فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا قد حرمتِ عليه»، فقالت: يا رسول الله لا تفعل! فإني وحيدة، ليس لي أهل سواه، فراجعها رسول الله ﷺ بمثل مقالته فراجعته، فهذا هو جدالها[2].

(١) أرادت أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. النهاية لابن الأثير (٩/ ٤٠٦٧).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٤٦) وما بعدها في عدة آثار اختصر ابن جزي سياقها.

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كانت تقول: «اللهم إني أشكو إليك حالي وانفرادي وفقري»[١].

وروي أنها كانت تقول: «اللهم إن لي منه صبيةً صغارًا إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا»[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ **المحاورة**: هي المراجعة في الكلام. قالت عائشة ﵂: سبحان من وسع سمعه الأصوات! لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفىٰ عليَّ وسمع الله كلامها[٣]. ونزل القرآن في ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زوجها وقال له: «أتُعتِق رقبة؟»، فقال: والله ما أملكها. فقال: «أتصوم شهرين متتابعين؟»، فقال: والله ما أقدر، فقال له: «أتطعم ستين مسكينًا؟» فقال: لا أجد إلا أن يعينني رسول الله ﷺ بمعونة وصلاة، يريد الدعاء، فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعًا، وقيل: بثلاثين صاعًا ودعا له، فكفَّر بالإطعام وأمسك زوجته[٤].

﴿ٱلَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ قرئ ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ بألف بعد الظاء وبحذفها، وبالتشديد والتخفيف[٥]، والمعنىٰ واحد وهو إيقاع الظِّهار. **والظهار المجمع عليه**: هو أن يقول الرجل لامرأته: «أنت عليَّ كظهر أمي». ويجري مجرىٰ ذلك عند مالك[٦]: تشبيه الزوجة بكل امرأة محرَّمة علىٰ التأبيد، كالبنت والأخت وسائر المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع والمصاهرة، سواءٌ ذكَر لفظ الظَّهْر أو لم يذكره، كقوله: «أنت علي كأمي» أو «كبطن أمي» أو «يدها» أو «رجلها»، خلافًا للشافعي؛ فإن ذلك كلَّه ليس عنده بظهار؛ لأنه وقَف عند لفظ

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٥١) في رواية محمد بن كعب القرظي.

(٢) تفسير الثعلبي (٢٦/ ١٢٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٢)، وأحمد (٢٤١٩٥)، والنسائي (٣٤٠٦)، وابن ماجه (١٨٨)، والحاكم (٣٧٩١) وصححه ووافقه الذهبي، والبخاري تعليقا (٩/ ١١٧) بلفظ: «الحمد لله -أو تبارك- الذي وسع سمعه الأصوات..».

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٤٩) من طريق العوفي عن ابن عباس ﵄.

(٥) قرأ عاصم: ﴿يُظَاهِرون﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وكسرها وألف بينهما، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿يَظَّاهَرون﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها وبتخفيف الهاء وفتحها، وقرأ الباقون كذلك ولكنهم بتشديد الهاء من غير ألف ﴿يَظَّهَّرون﴾.

(٦) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٢٢٨).

الآية، وقاس مالك عليه؛ لأنه رأىٰ أن المقصد تشبيه حلال بحرام.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ ردَّ الله بهذا علىٰ من كان يوقع الظهار ويعتقده حقيقة، وأخبر تعالىٰ أن تصيير الزوجة أمًّا باطلٌ؛ فإن الأم في الحقيقة إنما هي الوالدة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أخبر تعالىٰ أن الظهار منكر وزور، **فالمنكر**: هو الذي لا تعرف له حقيقة، **والزور**: هو الكذب، وإنما جعله كذبًا؛ لأن المظاهر يصيِّر امرأته كأمه، وهي لا تصير كذلك أبدًا. **والظهار محرَّم، ويدل علىٰ تحريمه أربعة أشياء:**

أحدها: قوله تعالىٰ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾؛ فإن ذلك تكذيب للمُظاهر.

والثاني: أنه سماه منكرًا.

والثالث: أنه سماه زورًا.

والرابع: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب. وهو مع ذلك لازم للمظاهر حتىٰ يرفعَه بالكفارة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختَلف الناس في معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ **علىٰ ستة أقوال:**

الأول: أنه إيقاع الظهار في الإسلام، فالمعنىٰ: أنهم كانوا يظاهرون في الجاهلية، فإذا فعلوه في الإسلام فذلك عَودٌ إليه، **هذا قول ابن قتيبة**[1]، فتجب الكفارة عنده بنفس الظهار، بخلاف أقوال غيره، فإن الكفارة لا تجب إلا بالظهار والعَود معًا.

الثاني: أن العود هو وطء الزوجة، روي ذلك عن مالك[2]، فلا تجب الكفارة علىٰ هذا حتىٰ يطأ، فإذا وطئ[3] وجبت عليه الكفارة، سواءٌ أمسك المرأة أو طلقها أو ماتت.

الثالث: أن العود هو العزم علىٰ الوطء، وروي هذا أيضًا عن مالك، فإذا عزم علىٰ الوطء وجبت الكفارة، سواءٌ أمسك الزوجة أو طلَّقها أو ماتت.

---

(١) غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) وهو قول أحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٢٦٨).

(٣) في ب، ج: «وطئها».

الرابع: أن العود هو العزم على الوطء وعلى إمساك الزوجة، وهذا أصح الروايات عن مالك.

الخامس: أنه العزم على الإمساك خاصة، وهذا مذهب الشافعي، فإذا ظاهر ولم يطلقها بعد الظهار لزمته الكفارة.

السادس: أنه تكرار الظهار مرة أخرى، وهذا مذهب الظاهرية، **وهو ضعيف؛ لأنهم** لا يرون الظهار يوجب حكمًا في أول مرة، وإنما يوجبه في الثانية، وإنما نزلت الآية فيمن ظاهر أول مرة، فذلك يردُّ عليهم.

ويختلف معنى ﴿لِمَا قَالُوا﴾ باختلاف هذه الأقوال: فأما على قول ابن قتيبة والظاهرية: فـ«ما» مصدرية، **والمعنى**: يعودون لقولهم. وأما على سائر الأقوال فـ«ما» بمعنى «الذي»، **والمعنى**: يعودون للوطء الذي حرَّموه، أو للعزم عليه، أو للإمساك الذي تركوه، أو للعزم عليه.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ جعل الله الكفارة في الظهار على ثلاثة أنواع مرتبة، لا ينتقل إلى الثاني حتى يعجز عن الأول، ولا ينتقل إلى الثالث حتى يعجز عن الثاني: **فالأول**: تحرير رقبة. **والثاني**: صيام شهرين متتابعين. **والثالث**: إطعام ستين مسكينًا.

فأما الرقبة: فاشترط مالك أن تكون مؤمنة[1]؛ لأن مذهبه حمل المطلق على المقيد، وجاءت هنا مطلقة، وجاءت في كفارة القتل مقيدة بالإيمان.

وأما صيام الشهرين: فاشتُرط فيه التتابع، **فإن أفسد الصائمُ التتابع باختياره**: ابتدأه من أوله باتفاق. **وإن أفسده بعذر كالمرض والنسيان: فقال مالك**[2]: يبني على ما كان معه، **وقال أبو حنيفة**: يبتدئ، وروي القولان عن الشافعي.

وأما الإطعام: فمشهور مذهب مالك: أنه مدٌّ لكل مسكين بمد هشام[3]، واختُلف في مد هشام: **فقيل**: إنه مدَّان غيرَ ثلث بمد النبي ﷺ، **وقيل**: إنه مدٌّ وثلث، **وقيل**: إنه مدان.

---

(١) وهو ظاهر مذهب أحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٢٩٨).

(٢) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٣٣٠).

(٣) هو هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة المخزومي، عامل المدينة لعبد الملك بن مروان. انظر: شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٢٢٢).

وقال الشافعي وابن القصَّار: يطعم مدًّا بمد النبي ﷺ لكل مسكين[١]. ولا يجزئه إلا كمال عدد الستين، فإن أطعم مسكينًا واحدًا ستين يومًا: لم يُجْزِه عند مالك والشافعي[٢]، خلافًا لأبي حنيفة[٣]، وكذلك إن أطعم ثلاثين مرتين. والطعام يكون من غالب قوت البلد.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ مذهب مالك[٤] والجمهور: أن المسيس هنا يراد به الوطء وما دونه من اللمس والتقبيل، فلا يجوز للمظاهر أن يفعل شيئًا من ذلك حتىٰ يكفِّر. وقال الحسن والثوري[٥]: أراد الوطء خاصة، فأباحا ما دونه قبل الكفارة. وذكر الله قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ في التحرير والصوم، ولم يذكره في الإطعام، فاختلف العلماء في ذلك: فحمل مالك[٦] الإطعام علىٰ ما قبله، ورأىٰ أنه لا يكون إلا قبل المسيس، وجعل ذلك من المطلق الذي يحمل علىٰ المقيد. وقال أبو حنيفة[٧]: يجوز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ قبل الكفارة؛ لأن الله لم ينص في الإطعام أنه قبلَ المسيس.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾ قال ابن عطية: الإشارة إلىٰ الرخصة في النقل من التحرير إلىٰ الصوم[٨]، وقال الزمخشري: المعنىٰ: ذلك البيان والتعليم لتؤمنوا[٩]، وهذا أظهر؛ لأنه أعم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يخالفون ويعادون.

﴿كُبِتُوا﴾ أي: أُهلكوا، وقيل: لُعنوا، وقيل: كُبِت الرجل: إذا بقي خَزْيان. ونزلت الآية في المنافقين واليهود[١٠].

(١) وكذا عند أحمد، مد بر أو مدَّان من غيره بمد النبي ﷺ. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٣٥٣).
(٢) وأحمد، إلا أن لا يجد غيره فيجزئه في ظاهر مذهبه. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٣٤٦).
(٣) وأحمد في الرواية الأخرىٰ.
(٤) وأحمد في إحدىٰ الروايتين، وهي المذهب عند الأصحاب. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٢٦٧).
(٥) وأحمد في الرواية الأخرىٰ، وهي ظاهر قول الخرقي.
(٦) وأحمد والجمهور. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٣/ ٢٦٥).
(٧) وأحمد في الرواية الأخرىٰ، اختارها أبو بكر غلام الخلال.
(٨) المحرر الوجيز (٨/ ٢٤٧).
(٩) الكشاف (١٥/ ٢٧٨).
(١٠) قاله في المحرر الوجيز (٨/ ٢٤٨).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ *أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿٧﴾ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ **يحتمل أن يكون النجوى هنا: بمعنى الكلام الخفي، فيكون ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ مضافًا إليه، أو بمعنى الجماعة من الناس، فيكون ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ بدلًا، أو صفة، والأول أحسن.**

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ **يعني: بعلمه وإحاطته، وكذلك ﴿سَادِسُهُمْ﴾ ، و ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.**

﴿٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ **نزل في قوم من اليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون على المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك فعادوا[1]. وقيل: نزلت في المنافقين، والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ لأن هذا من**

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٣) عن مقاتل بن حيان.

فعل اليهود. والأحسن أن يريد اليهود والمنافقين معًا؛ لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ فنزلت في الطائفتين.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: «السام عليك يا محمد»، بدلًا من «السلام عليكم[1]»، والسام: الموت، وهو ما أرادوه بقولهم، فكان رسول الله ﷺ يقول لهم: «وعليكم»، فسمعتهم عائشة ﵂ يومًا فقالت: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلًا يا عائشة! إن الله يكره الفحش والتفحُّش»، قالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أما سمعت ما قلت لهم؟ إني قلت: وعليكم»[2].

ويريد بقوله: ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: قولَه تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٦١].

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ كانوا يقولون: لو كان نبيًّا لعذَّبنا الله بإذايته، فقال الله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: يكفيهم ذلك عذابًا.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قيل[3]: يعني: النجوىٰ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وحذف وصفها بذلك؛ لدلالة الأول عليه. وقيل: أراد نجوىٰ اليهود والمنافقين، ويؤيد هذا قوله: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾ اختُلف في سبب الآية: فقيل: نزلت في مَقاعد الحرب والقتال[4]. وقيل: نزلت بسبب ازدحام الناس في مجلس رسول الله ﷺ وحرصهم علىٰ القرب منه[5]. وقيل: أقام النبي ﷺ قومًا ليُجلسَ أشياخًا من أهل بدر في مواضعهم، فنزلت الآية[6].

---

(١) في أ، هـ: «عليك».

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٠)، ومسلم (٢١٦٥).

(٣) لم ترد في ب، د.

(٤) قاله ابن عباس ﵄. أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٧٨).

(٥) قاله مجاهد وقتادة. أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٧٧).

(٦) قاله مقاتل بن حيان. أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٣).

ثم اختُلف هل هي مقصورة على مجلس النبي ﷺ أو هي عامة في جميع المجالس؟ فقال قوم: إنها مخصوصة، ويدلُّ على ذلك قراءة ﴿ٱلْمَجْلِسِ﴾ بالإفراد. وذهب الجمهور إلى أنها عامة، ويدل على ذلك قراءة ﴿ٱلْمَجَالِسِ﴾ بالجمع، وهذا هو الأصح، ويكون ﴿ٱلْمَجْلِسِ﴾ بالإفراد على هذا للجنس.

والتفسُّح المأمور به: هو التوسُّع دون القيام، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا يُقم أحدٌ أحدًا من مجلسه ثم يجلس الرجل فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا»[1]. وقد اختُلف في هذا النهي عن القيام من المجلس لأحد؛ هل هو على التحريم أو الكراهة؟

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يوسِّع لكم في جنته ورحمته، (وقيل: في قبوركم، وقيل: في بيوتكم)[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي: إذا قيل لكم: ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك. واختُلف في هذا النشوز المأمور به: فقيل: إذا دُعوا إلى قتال أو صلاة أو فعل طاعةٍ. وقيل: إذا أُمروا بالقيام من مجلس رسول الله ﷺ؛ لأنه كان يحب الانفراد أحيانًا، وربما جلس قوم حتى يؤمَروا بالقيام. وقيل: المراد: القيام في المجلس للتوسُّع.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فيها قولان:

أحدهما: يرفع اللهُ المؤمنين العلماءَ درجاتٍ، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كقولك: «جاءني العاقل والكريم»، وأنت تريد رجلًا واحدًا.

والثاني: يرفع اللهُ المؤمنين والعلماء الصنفين جميعًا درجاتٍ.

فالدرجات على الأول: للمؤمنين بشرط أن يكونوا علماء، وعلى الثاني: للمؤمنين الذين ليسوا علماء، وللعلماء أيضًا، ولكن بين درجات العلماء وغيرهم تفاوت يؤخذ من

(١) أخرجه البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سقط من أ، ب، ج، د، هـ، وهو مستدرك من نسخة خزانة القرويين، ونسخة مركز الملك فيصل، وأشار إلى هذين القولين في الكشاف (١٥/ ٢٨٧).

موضع آخر، كقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١]، وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلًا»[٢]، وقوله ﷺ: «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[٣] فإذا كان لهم فضل على العابدين والشهداء، فما ظنك بفضلهم على سائر المؤمنين!

﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال ابن عباس ﷺ: سببها أن قومًا من شبان المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة، إلا لتظهر[٤] منزلتهم، وكان النبي ﷺ سمْحًا لا يرد أحدًا، فنزلت الآية مشدِّدةً في أمر المناجاة[٥]. وقيل: سببها: أن الأغنياء غلبوا الفقراء على مناجاته ﷺ[٦].

وهذه الآية منسوخة باتفاق، نسَخها قوله بعدها: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ الآيةَ، فأباح الله لهم المناجاة دون تقديم صدقة، بعد أن كان قد أوجب تقديم الصدقة قبل مناجاته ﷺ.

واختُلف هل كان هذا النسخ بعد أن عُمل بالآية أم لا؟ فقال قوم: لم يعمل بها أحد. وقال قوم: عمل بها عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ فإنه روي أنه كان له دينار فصرفه بعشرة دراهم وناجاه عشر مرات، تصدق في كل مرة منها بدرهم، وقيل: تصدق في كل مرة بدينار[٧]. ثم أنزل الله الرخصة لمن كان قادرًا على الصدقة، وأما من لم يجد فالرخصة لم تزل ثابتةً له بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وصححه، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨) عن أبي الدرداء ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: «حسن صحيح غريب» عن أبي أمامة الباهلي ﷺ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣) عن عثمان ﷺ، وضعف إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٣)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٦٠).

(٤) في أ: «ليظهروا».

(٥) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٨٤) عن ابن عباس ﷺ بمعناه، وانظر: المحرر الوجيز (٨/ ٢٥٤).

(٦) قاله مقاتل كما في المحرر الوجيز (٨/ ٢٥٤).

(٧) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٨٣)، وابن أبي شيبة (٣٢٧٨٨)، والحاكم (٣٧٩٤) وصححه ووافقه الذهبي.

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ **التوبة هنا يراد بها:** عفو الله عنهم في تركهم للصدقة التي أُمروا بها، أو[1] تخفيفها بعد وجوبها.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: دُوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم، دون ما كنتم قد كلِّفتم من الصدقة عند المناجاة.

(١) في ب، ج: «و».

*أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوۤاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلاَ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئاً أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلاۤ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَـٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ أَلاۤ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰئِكَ فِي ٱلأَذَلِّينَ كَتَبَ ٱللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيۤ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوۤاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوِ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلاۤ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿١٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ﴾ نزلت في قوم من المنافقين تولوا قومًا من اليهود، وهم الذين غضب الله عليهم.

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ﴾ يعني: أن المنافقين ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود، فهو كقوله فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لاَ إِلَىٰ هَـٰؤُلاۤءِ وَلاَ إِلَىٰ هَـٰؤُلاۤءِ﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن المنافقين كانوا إذا عوتبوا على سوء أقوالهم وأفعالهم حلفوا أنهم ما قالوا ولا فعلوا، وقد صدر ذلك منهم مرارًا كثيرة هي مذكورة في السِّيَر وغيرها.

﴿١٦﴾ ﴿ٱتَّخَذُوۤاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أصل الجُنَّة: ما يُستتَر به ويُتقَّىٰ به المحذورُ كالتُّرس، ثم استُعمل هنا استعارةً؛ لأنهم كانوا يُظهرون الأيمان لتُعصم دماؤهم وأموالهم. وقرئ «اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ» بكسر الهمزة[1].

(١) وهي قراءة الحسن البصري. المحرر الوجيز (٨/ ٢٥٦).

﴿١٩﴾ ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: غلب عليهم وتملَّك نفوسَهم.

﴿٢٠﴾ ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: في جملة الأذلين؛ أي: معهم.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي: قضىٰ وقدَّر.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآيةَ؛ معناها: لا تجد مؤمنًا يحب كافرًا ولو كان أقرب الناس إليه، وهذه حال المؤمن الصادق الإيمان، ولذلك كان الصحابة ﷺ يقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم إذا كانوا كفارًا، فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح ﷺ أباه يوم أحد[1]، وقتل مصعب بن عمير ﷺ أخاه عزيز[2] بن عمير يوم أحد، ودعا أبو بكر الصديق ﷺ ابنه يوم بدر للبراز فأمره النبي ﷺ أن يقعد[3]. وقيل: إن الآية نزلت في حاطب حين كتب إلىٰ المشركين يخبرهم بأخبار رسول الله ﷺ[4]. والأحسن أنها علىٰ العموم. وقيل: نزلت فيمن يصحب السلطان[5]، وذلك بعيد.

﴿يُوَآدُّونَ﴾ هذه مفاعلة من المودَّة، فتقضي أن المودَّة من الجهتين.

﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ أي: عاداه وخالفه.

﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبته فيها كأنه مكتوب.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: بلطف وهدىٰ وتوفيق، وقيل: بالقرآن، وقيل: بجبريل عليه السلام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ هذه[6] في مقابلة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. والحزب: هم الجماعة المتحزِّبون لمن أُضِيفوا إليه.

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٦/ ١٦٧) عن ابن مسعود ﷺ، ثم قال: «قال الواقدي: كذلك يقول أهل الشام، ولقد سألت رجالًا من بني الحارث بن فهر فقالوا: توفي أبوه من قبل الإسلام».

(٢) الذي في سيرة ابن هشام (١/ ٦٤٥) أن اسمه: «أبو عزيز»، وفي تفسير الثعلبي والواحدي: «عبيد بن عمير»!

(٣) ذكره الواحدي في البسيط (٢١/ ٣٥٧) عن عطاء عن ابن عباس ﷺ.

(٤) ذكره الثعلبي (٢٦/ ١٦٦)، والواحدي في البسيط (٢١/ ٣٥٧).

(٥) أخرجه ابن مردويه عن سفيان الثوري، كما في الدر المنثور (١٤/ ٣٢٩).

(٦) في ج، د: «هذا».

سورة الحشر

نزلت هذه السورة[1] في اليهود[2] بني النَّضِير، وكانوا في حصون بمقرُبة من المدينة، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فأرادوا غدره، فأطْلعه الله على ذلك فخرج إليهم وحاصرهم إحدى وعشرين ليلة حتى صالحوه على أن يخرجوا من حصونهم، فخرجوا منها وتفرقوا في البلاد.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ۗ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

(١) في أ: «الآية».

(٢) في د: «يهود».

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: بني النضير.

﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ في معناه أربعة أقوال:

أحدها: أنه حشر القيامة، أي: خروجهم من حصونهم أولُ الحشر، والقيامُ من القبور آخرُه، وروي في هذا المعنىٰ: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «امضوا هذا أول الحشر، وأنا علىٰ الأثر»[1].

الثاني: أن المعنىٰ: لأول موضع الحشر وهو الشام، وذلك أن أكثر بني النضير خرجوا إلىٰ الشام، وقد جاء في الأثر: أن حشر[2] القيامة إلىٰ أرض الشام[3]. وروي في هذا المعنىٰ: أن النبي ﷺ قال لبني النضير: «اخرجوا». قالوا: إلىٰ أين؟ قال: «إلىٰ أرض المحشر[4]»[5].

الثالث: أن المراد: الحشر في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج، فإخراجهم من حصونهم: أول الحشر، وإخراج أهل خيبر: آخره.

الرابع: أن معناه: إخراجهم[6] من ديارهم لأول ما حَشر لقتالهم؛ لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ.

وقال الزمخشري: اللام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ﴾ بمعنىٰ: «عند»، كقولك: جئت لوقت كذا[7].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٩٩)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٥) عن الحسن مرسلًا.

(٢) في ب زيادة: «الناس يوم».

(٣) أخرجه الطبري (٢٠/ ٤٠٨) وأحمد (٢٠٠١١) والنسائي في الكبرىٰ (١١٣٦٧) والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٧٥)، والكبير (١٩/ ٤٢٧) من حديث حكيم بن معاوية البهزي، عن أبيه معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ، قال محققو المسند ط. مؤسسة الرسالة: «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح غير حكيم- وهو ابن معاوية بن حيدة القشيري- وهو صدوق حسن الحديث، وغير والده معاوية بن حيدة، فقد روىٰ لهما أصحاب السنن وعلق لهما البخاري».

(٤) في د، هـ: «الحشر».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٥)، عن ابن عباس ﷺ، قال في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٢٠): «رواه البزار وفيه أبو سعد البقال والغالب عليه الضعف».

(٦) في د، هـ: «أخرجهم».

(٧) الكشاف (١٥/ ٣٠٤).

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ يعني: لكثرة عُدَّتهم ومنَعة حصونهم.

﴿وَأَتَىٰهُمُ اللَّهُ﴾ عبارةٌ عن أخذ الله لهم.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أما إخراب المؤمنين: فهو هدم أسوار الحصون ليدخلوها، وأسند ذلك إلىٰ الكفار في قوله: ﴿يُخْرِبُونَ﴾؛ لأنه كان بسبب كفرهم وغدرهم. وأما إخراب الكفار لبيوتهم فلثلاثة مقاصد:

أحدها: حاجتهم إلىٰ الخشب والحجارة؛ ليسدُّوا بها أفواه الأزِقَّة ويحصِّنوا ما خرَّبه المسلمون من الأسوار.

والآخر: ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسواري وغير ذلك.

والثالث: أن لا تبقىٰ مساكنهم مبنيةً للمسلمين، فهدموها شحًّا عليها.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ استدلَّ الذين أثبتوا القياس في الفقه بهذه الآية، واستدلالهم بها ضعيف خارج عن معناها.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ الجلاء: هو الخروج عن الوطن، فالمعنىٰ: لولا أن كتب الله علىٰ بني النضير خروجَهم عن أوطانهم لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة، ولهم مع ذلك عذاب النار.

﴿شَاقُّوا﴾ ذكر في «الأنفال»[1].

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ اللِّينة: هي النخلة، وقيل: هي الكريمة من النخل، وقيل: النخلة التي ليست بعَجْوة، وقيل: ألوان النخل المختلطة. وسبب الآية: أن رسول الله ﷺ لما نزل علىٰ حصون بني النضير قطع المسلمون بعض نخلهم، وأحرقوا، فقال بنو النضير: ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهىٰ عن الفساد! فنزلت الآية[2] مُعْلِمةً أن كل ما جرىٰ من قطعٍ أو إمساك فإن الله أذن للمسلمين في ذلك؛ ليُخزي الفاسقين بني النضير.

---

(١) انظر تفسير الآية (١٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٥١٠) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان.

واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، فإن الله قد صوب فعل من قطع النخل ومن تركها.

واختلف العلماء في قطع شجر المشركين وتخريب بلادهم، فأجازه الجمهور؛ لهذه الآية، ولإقرار رسول الله ﷺ على تحريق نخل بني النضير.

وكرهه قوم؛ لوصية أبي بكر الصديق ﷺ الجيشَ الذي وجههم[1] إلى الشام أن لا يقطعوا شجرًا مثمرًا[2].

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ معنى ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾: جعله فيئًا لرسول الله ﷺ. و﴿أَوْجَفْتُمْ﴾ من الوجيف، وهو سرعة السير. والركاب: هي الإبل. والمعنى: أن ما أعطى اللهُ رسولَه من أموال بني النضير لم يمش المسلمون إليه بخيل ولا إبل ولا تعبوا فيه، ولا حصَّلوه بقتال، ولكن حصَل بتسليط رسوله ﷺ على بني النضير، فأعلم الله مِن هذه الآية أن ما أُخِذ لبني النضير[3] وما أُخِذ مِن فَدَكَ فهو فيءٌ خاص للنبي[4] ﷺ، يَفعل فيه ما يشاء؛ لأنه لم يُوجَف عليها، ولا قوتلت كبير قتال، فهي بخلاف الغنيمة التي تؤخذ بالقتال، فأخذ رسول الله ﷺ لنفسه من أموال بني النضير قوت عياله، وقسَم سائرها في المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، غير أن أبا دُجانة وسهلَ بن حنيف شَكَوَا فاقةً فأعطاهما رسول الله ﷺ منها، هذا قول جماعة. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: كان رسول الله ﷺ ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في السلاح والكُراع عدة في سبيل الله[5].

قال قوم من العلماء: وكذلك كل ما فتحه الأئمة مما لم يوجَف عليه، فهو لهم خاصة يأخذون منه حاجتهم ويصرفون باقيَه في مصالح المسلمين.

---

(١) في ج، د: «وجهه».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٢٩٣) عن يحيى بن سعيد.

(٣) في أ: «ما أخذه من بني النضير».

(٤) في أ، هـ: «بالنبي».

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧).

﴿٧﴾ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآيةَ؛ **اضطرب الناس في تفسير هذه الآية وحكمها اضطرابًا عظيمًا، فإن ظاهرها: أن الأموالَ التي تؤخذ للكفار تكون لله** وللرسول ومن ذكر بعد ذلك ولا يُخرج منها خمسٌ، ولا تقسم علىٰ من حضر الوقيعة، وذلك يعارض ما ورد في «الأنفال» من إخراج الخمس، وقسمة سائر الغنيمة علىٰ من حضر الوقيعة!

فقال بعضهم: إن هذه الآية منسوخة بآية «الأنفال»، **وهذا خطأ**؛ لأن آية «الأنفال» نزلت قبل هذه بمدة. **وقال بعضهم**: إن آية «الأنفال» في الأموال التي تغنم ما عدا الأرض، وإن هذه الآية في أرض الكفار، قالوا: ولذلك لم يقسم عمر بن الخطاب ﷺ أرض مصر والعراق، بل تركها لمصالح المسلمين، **وهذا التخصيص لا دليل عليه**. وقيل غير ذلك، **والصحيح**: أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين آية «الأنفال»، **فإن آية «الأنفال» في** حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب، فهذا يخرج منه الخمس ويقسم[1] بقيته علىٰ الغانمين.

وأما هذه الآية: ففي حكم الفيء، وهو ما يؤخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، وإذا كان كذلك، فكل واحدة من الآيتين في معنىٰ غير معنىٰ الأخرىٰ، ولها حكم غير حكم الأخرىٰ، فلا تعارض بينهما ولا نسخ. وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء وفي «الأنفال» لفظ الغنيمة، وقد تقرَّر في الفقه الفرق بين الغنيمة والفيء، وأن حكمهما مختلف.

قال أبو محمد ابنُ الفَرس: وهو قول الجمهور وبه قال مالك وجميع أصحابه، وهو أظهر الأقوال[2]. وأما فعل عمر ﷺ في أرض مصر والعراق، **فالصحيح**: أنه فعل ذلك لمصلحة المسلمين بعد استطابة نفوس الغانمين. فقوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يريد بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كما كانت أموال بني النضير،

---

(١) في ب، ج: «وتقسم».

(٢) أحكام القرآن، لابن الفرس (٣/ ٨٩).

ولكنه حذف هذا؛ لقوله في الآية قبل هذا: ﴿وَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، فاستغنىٰ بذكر ذلك أولًا عن ذكره ثانيًا، ولذلك لم تدخل الواو العاطفة في أول هذه الجملة؛ لأنها من تمام الأولىٰ فهي غير أجنبية منها، فإنه بيَّن في الآية الأولىٰ حكم أموال بني النضير، وبين في هذه حكم ما كان مثلها من أموال غيرهم علىٰ العموم. ويصرف الفيء فيما يصرف فيه خمس الغنائم؛ لأن الله سوَّىٰ بينهما في قوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقد ذكرنا ذلك في «الأنفال» فأغنىٰ عن إعادته. وقد ذكرنا في «الأنفال» معنىٰ قوله: ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وما بعد ذلك[1].

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي: كي لا يكون الفيءُ الذي أفاء الله علىٰ رسوله من أهل القرىٰ دولةً ينتفع به الأغنياء دون الفقراء، وذلك أن رسول الله ﷺ قسَم أموال بني النضير علىٰ المهاجرين فإنهم كانوا حينئذ فقراء، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء، فأنزل الله هذه الآية[2].

والدولة -بالضم والفتح-: ما يدول الإنسان[3]؛ أي: يدور عليه من الخير، ويحتمل أن يكون من المداولة؛ أي: كي لا يَتداول ذلك المالَ الأغنياءُ بينهم، ويبقىٰ الفقراء بلا شيء.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ نزلت بسبب الفيء المذكور، أي: ما آتاكم الرسول من الفيء فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، فكأنها أمرٌ للمهاجرين بأخذ الفيء ونهيٌ للأنصار عنه. ولفظ الآية مع ذلك عامٌّ في أوامر رسول الله ﷺ ونواهيه، ولذلك استدلَّ بها عبد الله بن مسعود ﷺ علىٰ أن المنع من لبس المُحْرِم المخيطَ، ولعْنَ الواشمة والواصلة: في القرآن؛ لورود ذلك عن رسول الله ﷺ[4].

---

(١) انظر تفسير الآية (٤١).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٨/ ٢٦٥).

(٣) في ب: «علىٰ الإنسان».

(٤) استدلاله بها علىٰ لعن الواشمة والواصلة أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، (٤٨٨٧)، ومسلم (٢١٢٥)، واستدلاله بها علىٰ المنع من لبس المحرم للمخيط أخرجه الثعلبي في تفسيره (٢٦/ ٢٢٠).

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ هذا بدلٌ من قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ليبيِّن بذلك أن المراد المهاجرون، ووصَفهم بأنهم ﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ لأنهم هاجروا من مكة وتركوا فيها أموالهم وديارهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم الأنصار، و﴿ٱلدَّارَ﴾: هي المدينة؛ لأنها كانت بلدَهم، والضمير في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ للمهاجرين. **فإن قيل**: كيف قال ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ وإنما تُتَبوَّأُ الدار -أي: تُسكَن- ولا يُتبوأ الإيمان؟ **فالجواب من وجهين**:

الأول: أن معناه: تبوؤوا الدارَ وأخلصوا الإيمان، فهو كقوله: فعلفْتُها[1] تِبْنًا وماء باردًا[2] تقديره: علفتها تبنًا وسقيتها ماء.

الثاني: أن المعنىٰ: أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطنٌ لهم؛ لتمكُّنهم فيه، كما جعلوا المدينة كذلك. **فإن قيل**: قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول المدينة وبالإيمان، فأما سبْقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه؛ لأنها كانت بلدَهم، وأما سبْقهم لهم بالإيمان فمشكل! لأن أكثر المهاجرين أسلموا قبل الأنصار. **فالجواب من وجهين**:

أحدهما: أنه أراد بقوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: من قبل هجرتهم.

والآخر: أنه أراد: تبوؤوا الدار مع الإيمان معًا؛ أي: جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين؛ لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبوُّئِ[3] الدار، فيكون: ﴿ٱلْإِيمَٰنَ﴾ علىٰ هذا مفعولًا معه، وهذا الوجه أحسن؛ لأنه جواب عن هذا السؤال، وعن السؤال الأول، فإنه إذا كان ﴿ٱلْإِيمَٰنَ﴾ مفعولًا معه لم يلزم السؤال الأول؛ إذ لا يلزم إلا إذا كان ﴿ٱلْإِيمَٰنَ﴾ معطوفًا علىٰ ﴿ٱلدَّارَ﴾.

---

(١) في د: «علفتها».

(٢) هذا صدر بيت، وعجزه: «حتىٰ شتتْ همّالةٌ عيْنَاهَا». قال بدر الدين العيني في «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية»: «هذا رجَز مشهور بين القوم، ولم أر أحدًا عزاه إلىٰ راجزه».

(٣) في ب، د: «بنزول».

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ قيل: إن الحاجة هنا: بمعنىٰ الحسد، ويحتمل أن تكون بمعنىٰ الاحتياج علىٰ أصلها. والضمير في ﴿يَجِدُونَ﴾ للأنصار، وفي ﴿أُوتُوا﴾ للمهاجرين، والمعنىٰ: أن الأنصار تطيب نفوسهم بما يعطاه المهاجرون من الفيء وغيره، فلا يجدون في صدورهم شيئًا بسبب ذلك.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يؤثرون غيرهم بالمال علىٰ أنفسهم ولو كانوا في غاية الاحتياج. والخصاصة: هي الفاقة. وروي أن سبب هذه الآية: أن رسول الله ﷺ لما قسم هذه القرىٰ علىٰ المهاجرين دون الأنصار قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه» فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة[1].

وروي أيضًا أن سببها: أن رجلًا من الأنصار أضاف رجلًا من المهاجرين، فذهب الأنصاري بالضيف إلىٰ منزله فقالت له امرأته: والله ما عندنا إلا قوت الصِّبيان، فقال لها: نوِّمي صِبيانك وأطفئي السراج، وقدِّمي ما عندك للضيف، ونوهمه نحن أنَّا نأكل ولا نأكل، ففعلا ذلك، فلما غدا علىٰ رسول الله ﷺ قال له: «عجب الله من فعلكما البارحة» ونزلت الآية[2].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ شحُّ النفس: هو البخل والطمع. وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أن الأنصار وقاهم الله شح أنفسهم فمدحهم الله بذلك، وبأنهم يؤثرون علىٰ أنفسهم، وبأنهم لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتي المهاجرون، وأنهم يحبون المهاجرين.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هذا معطوفٌ علىٰ المهاجرين والأنصار المذكورين قبل.

---

(١) ذكره الثعلبي عن ابن عباس ﷺ، ولم يسنده، وذكره الواحدي في البسيط (٢١/ ٣٨١) عن الكلبي عن ابن عباس ﷺ، والكلبي متروك متهم بالكذب والرفض. تقريب التهذيب (٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) عن أبي هريرة ﷺ.

فالمعنى: أن الفيء للمهاجرين والأنصار ولهؤلاء الذين جاؤوا من بعدهم، ويعني بهم: الفرقة الثالثة من الصحابة وهم ما عدا المهاجرين والأنصار، كالذين أسلموا يوم فتح مكة.

وقيل: يعني: من جاء بعد الصحابة، وهم التابعون ومن تبعهم إلى يوم القيامة، وعلى هذا حملها مالك فقال: إن مَن قال في أحدٍ من الصحابة قول سوء فلا حظَّ له في الغنيمة والفيء؛ لأن الله وصف الذين جاؤوا بعد الصحابة بأنهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فمن قال ضدَّ ذلك فقد خرج عن الذين وصفهم الله[1].

(١) انظر: النوادر والزيادات، لابن أبي زيد (٣/ ٣٩٨)

*﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

﴿١١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ الآية؛ نزلت في عبد الله ابن أبيِّ ابنِ سلول وقوم من المنافقين، بعثوا إلىٰ بني النضير، وقالوا لهم: اثبتوا في حصونكم فإنا معكم كيفما تقلَّبت حالكم[1].

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نسمع فيكم قول قائل، ولا نطيع مَن يأمرنا بخذلانكم. ثم كذَّبهم الله في هذه المواعيد التي وعدوا بها. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ بعد قوله: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؟ فالجواب: أن المعنىٰ: علىٰ الفرض والتقدير؛ أي: لو فرضنا أن يَنصروهم لوَلَّوا الأدبار.

﴿١٣﴾ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الرَّهبة: هي الخوف. والمعنىٰ: أن المنافقين واليهود يخافون الناس أكثر مما يخافون الله.

﴿١٤﴾ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ أي: لا يقدرون علىٰ قتالكم مجتمعين إلا وهم في قرىً محصنة بالأسوار والخنادق، أو من وراء الحيطان دون أن يخرجوا إليكم.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني: عداوةَ بعضهم لبعض.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٥٣٤) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان.

﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: تظن أنهم مجتمعون بالألفة والمودة وقلوبهم متفرقة[1] بالمخالفة والشحناء.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً﴾ أي: هؤلاء اليهودُ كمثل الذين من قبلهم، يعني: اليهود بني قينقاع؛ فإن رسول الله ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير، فكانوا مثلًا لهم. وقيل: يعني: أهل بدرٍ الكفارَ، فإنهم قبلهم ومثَلٌ لهم في أنْ غُلِبوا وقُهِروا، والأول أرجح؛ لأن قوله: ﴿قَرِيباً﴾ يقتضي أنهم كانوا قبلهم بمدة يسيرة، وذلك أوقعُ على بني قينقاع، وأيضًا فإن تمثيل بني النضير ببني قينقاع أليقُ؛ لأنهم يهود مثلهم، وأُخرجوا من ديارهم كما فُعل بهم، وذلك هو المراد بقوله: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾. و﴿قَرِيباً﴾ ظرف زمان.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ مثَّل الله المنافقين الذين أغووا اليهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان؛ فإنه يُغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه. والمراد بالشيطان والإنسان هنا: الجنس. وقيل: أراد الشيطان الذي أغوىٰ قريشًا يوم بدر وقال لهم: إني جارٌ لكم. وقيل: المراد بالإنسان بَرْصيص العابد؛ فإنه استُودع امرأة فزين له الشيطان الوقوع عليها فحمَلت فخاف الفضيحة فزين له الشيطانُ قَتْلَها فلما وُجدت مقتولة تبيَّن ما فعل، فتعرض له الشيطانُ وقال له: اسجد لي وأنجيك، فسجد له فتركه الشيطان وقال له: إني بريء منك[2]، وهذا ضعيف في النقل، والأول أرجح.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ الضميران يعودان علىٰ الشيطان والإنسان، وفي ذلك تمثيل للمنافقين واليهود.

(١) في ج، د، هـ: «مفترقة».

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٥٤١)، والحاكم (٣٨٠١) وصححه ووافقه الذهبي عن علي ﷺ موقوفًا، وأخرجه الطبري (٢٢/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٨) من طريق العوفي عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه الطبري (٢٢/ ٥٤٢) عن ابن مسعود ﷺ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٨٠) عن عُبيد بن رفاعة الزرقي عن النبي ﷺ، وهو مرسل (تخريج أحاديث الإحياء ١/ ٩٠٩)، وليس فيها ذكر اسم الراهب، وإنما ذكره السهيلي في التعريف والإعلام (٣٢٧): «ويقال اسم هذا الراهب: برصيصا [كذا].. ولا أنا منه على ثقة».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿١٨﴾ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ هذا أمرٌ بأن تنظر كلُّ نفس ما قدمت من أعمالها ليوم القيامة. ومعنىٰ ذلك: محاسبة النفس لتكفَّ عن السيئات وتزيد من الحسنات، وإنما عبَّر عن يوم القيامة بـ﴿غَدٍ﴾ تقريبًا له؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب. فإن قيل: لم كرر الأمر بالتقوىٰ؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه تأكيد.

والآخر -وهو الأحسن-: أنه أمر بالتقوىٰ أولًا استعدادًا ليوم القيامة، ثم أمر به ثانيًا؛ لأن الله خبير بما يعملون، فلما اختلف الموجِبان كرَّره مع كل واحد منهما.

﴿١٩﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ يعني: الكفار[1]. والنسيان هنا يحتمل أن يكون: بمعنىٰ الترك، أو الغفلة؛ أي: نسوا حقَّ الله فأنساهم حقوق أنفسهم والنظرَ لها.

﴿٢١﴾ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآيةَ؛ توبيخٌ لابن آدم علىٰ قسوة قلبه، وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن، فإنه إذا كان الجبل يخشع ويتصدَّع لو سمع القرآن فما ظنك بابن آدم!

﴿٢٢﴾ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما غاب عن المخلوقين وما شاهدوه. وقيل: الغيب: الآخرة، والشهادة: الدنيا، والعموم أحسن.

(١) في د زيادة: «والمنافقين».

﴿٢٣﴾ ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ مشتقٌّ من التقدُّس[١]، وهو التنزُّه عن صفات المخلوقين، وعن كل نقص وعيب، وصيغة فُعُّول للمبالغة كالسُّبُّوح.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ في معناه قولان: أحدهما: الذي سَلِم عبادُه من جَوْره. والآخر: السَّليم من النقائص. وأصله مصدر بمعنىٰ السلامة، ثم وُصِف به مبالغةً، أو علىٰ حذف مضاف تقديره: ذو السلام.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من الأمن؛ أي: الذي أمَّن عباده. والآخر: أنه من الإيمان؛ أي: المصدِّق لعباده في إيمانهم، أو في شهادتهم علىٰ الناس يوم القيامة، أو المصدِّق نفسَه في أقواله.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ في معناه ثلاثة أقوال: الرقيب والشاهد والأمين. قال الزمخشري: أصله «مؤيمن» بالهمزة ثم أبدلت هاء[٢].

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنه من الإجبار بمعنىٰ القهر. والآخر: أنه من الجبر؛ أي: يَجبُر عباده برحمته، والأول أظهر.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي له التكبُّر حقًّا.

﴿٢٤﴾ ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ أي: الخالق، يقال: برأ الله الخلق أي: خلقهم، ولكن البارئ والفاطر يراد بهما: الذي بدأ الخلق واخترعه.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: خالق الصور.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»[٣]. قال المؤلف: قرأت القرآن علىٰ الأستاذ الصالح أبي عبد الله ابن الكمَّاد فلما بلغت إلىٰ آخر سورة «الحشر» قال لي: ضع يدك علىٰ رأسك، فقلت له: ولم ذلك؟ قال: لأني قرأت علىٰ القاضي أبي علي بن أبي الأحوص فلما انتهيت إلىٰ خاتمة «الحشر»

(١) في أ، هـ: «التقديس».
(٢) الكشاف (١٥/ ٣٤٤).
(٣) تقدم تخريجه.

قال لي: ضع يدك على رأسك، وأسند الحديث إلى عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قرأت على النبي ﷺ فلما انتهيت إلى خاتمة «الحشر» قال لي: «ضع يدك على رأسك». قلت: ولم ذاك يا رسول الله فداك أبي وأمي؟ قال: «أقرأني جبريل القرآن فلما انتهيت إلى خاتمة «الحشر»، قال لي: ضع يدك على رأسك يا محمد، قلت: ولم ذاك؟ قال: إن الله تبارك وتعالى افتتح القرآن فضرب فيه فلما انتهى إلى خاتمة سورة «الحشر» أمر الملائكة أن تضع أيديها على رؤوسها، فقالت: يا ربنا ولم ذاك؟ قال: لأنه شفاء من كل داء إلا السام، والسام الموت»[1].

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان (١/ ١٩٠) وأخرجه من طريقه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/ ٢٥٣)، وقال السيوطي في «ذيل اللآلئ المصنوعة» (١/ ١٠٨): «قال الذهبي: هذا حديث باطل»، وانظر: لسان الميزان، لابن حجر (٦/ ٥٢٤).

سورة الممتحنة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

﴿١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ **العدوُّ**: يَنطلق على الواحد والجماعة، **والمراد به**: هنا كفار قريش، وهذه الآيات[1] نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة ﷺ، وذلك أن رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية، فورَّى عن ذلك بخيبر، فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر، وأخبر هو جماعةً من كبار أصحابه بقصده إلى مكة، منهم حاطب، فكتب بذلك حاطب إلى قوم من أهل مكة، فجاء

(١) في ب، ج، د: «الآية».

الخبر إلىٰ رسول الله ﷺ من السماء، فبعث علي بن أبي طالب والزبير والمقداد وقال: «انطلِقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلىٰ المشركين»، فانطلقوا حتىٰ وجدوا المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئًا، فقال بعضهم: ما معها كتاب! فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما كَذَب رسول الله ﷺ ولا كُذب، والله لتُخرِجنَّ الكتاب أو لنجرِّدنَّكِ! قالت: أعرضوا عني، فأخرجته من قرون رأسها، وقيل: أخرجته من حُجْزَتِها، فجاؤوا به إلىٰ رسول الله ﷺ فقال لحاطب: «من كتب هذا؟» قال: أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل عليَّ، فوالله ما فعلت ذلك ارتدادًا عن ديني، ولا رغبة في الكفر، ولكني كنت امرأً مُلصَقًا في قريش، ولم أكن من أنفُسها، فأحببت أن تكون لي عندهم يدٌ يرعونني بها في قرابتي، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «صدَق حاطبٌ، إنه من أهل بدر، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيرًا»[1]. فنزلت الآية عتابًا لحاطب، وزجرًا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشريف له؛ لأن الله شهد له بالإيمان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ عبارةٌ عن إيصال المودَّة إليهم. و«ألقىٰ» يتعدَّىٰ بحرف جر، وبغير حرف جر كقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٨]. وهذه الجملة في موضع الحال من الضمير في قوله: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ﴾، أو في موضع الصفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أو استئناف.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾ حال من الضمير في ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ﴾، أو في ﴿تُلْقُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: يخرجون الرسول ويخرجونكم، يعني: إخراجهم من مكة، فإنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتىٰ خرجوا مهاجرين إلىٰ المدينة، ومنهم من خرج[2] إلىٰ أرض الحبشة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي رضي الله عنه.

(٢) في ب زيادة: «مهاجرًا».

﴿أَن تُؤمِنُواْ﴾ مفعولٌ من أجله؛ أي: يخرجونكم من أجل إيمانكم.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰداً فِي سَبِيلِي﴾ جواب هذا الشرط محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه وهو ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ﴾، **والتقدير**: إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء. و ﴿جِهَٰداً﴾ : مصدر في موضع الحال، أو مفعول من أجله، وكذلك ﴿ابْتِغَآءَ﴾.

(٢) ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ معناه: إن يظفروا بكم.

﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تمنوا أن تكفروا فتكونوا مثلهم. **قال الزمخشري**: وإنما قال: ﴿وَدُّواْ﴾ بلفظ الماضي بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع؛ لأنه أراد: ودُّوا كفْرَكم قبل كل شيء[1].

(٣) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ إشارةٌ إلىٰ ما قصد حاطب ﷺ مِن رعْي قرابته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ **يحتمل أن يكون** من الفصل بالحكم بينهم، أو من الفصل بمعنىٰ التفريق؛ أي: يُفرِّق بينكم وبين قرابتكم يوم القيامة. **وقيل**: إن العامل في ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ما قبله، **وذلك بعيد**.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ **الإسوة**: هو الذي يُقتدَىٰ به. فأمر الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل ﷺ وبالذين معه في عداوة الكفار والتبرِّي منهم. **ويعني بـ**﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ : من آمن به من الناس. **وقيل**: الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريبًا من عصره، **ورجح ابن عطية**[2] هذا القول بما ورد في الحديث أن إبراهيم ﷺ قال لزوجته: «ما علىٰ الأرض مؤمن بالله غيري وغيرك»[3].

﴿بُرَءَٰؤُاْ﴾ جمع بريء.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٣٥٢).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٢٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١) عن أبي هريرة ﷺ.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: كذَّبناكم في أقوالكم، ويَحتمل أن يكون عبارةً عن إفراط البغض فيهم والمقاطعة لهم.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هذا استثناءٌ من قوله: ﴿إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فالمعنىٰ: اقتدُوا بهم في عداوتهم للكفار، ولا تقتدوا بهم في هذا؛ لأن إبراهيم ﷺ وعد أباه أن يستغفر له، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وقيل: الاستثناء من التبري والقطيعة، والمعنىٰ: تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار، إلا أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ هذا من كلام إبراهيم ﷺ والذين معه، وهو متصل بما قبل الاستثناء، فهو من جملة ما أُمر أن يُقتدَىٰ به.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في معناه قولان: أحدهما: لا تنصرهم علينا فيكون ذلك لهم فتنةً وسببَ ضلالةٍ؛ لأنهم يقولون: غلبناهم لأنَّا علىٰ الحق، وهم علىٰ الباطل. والآخر: لا تسلِّطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، ورجح ابن عطية هذا؛ لأنه دعاء لأنفسهم، وأما علىٰ القول الآخر فهو دعاء للكفار، ولكن مقصدهم ليس الدعاء للكفار، وإنما هو دعاء لأنفسهم بالنصر؛ بحيث لا يَفتتن الكفار بذلك[1].

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٨١).

*عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣

۝٧ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم امتثلوا ذلك على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة، فعلم الله صدقهم فآنسهم بهذه الآية، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذ سائر قريش. وقيل: المودَّة تزوُّج النبي ﷺ أمَّ حبيبة رضي الله عنها بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش، وردَّ ابن عطية هذا القول بأن تزوج أم حبيبة كان قبل نزول هذه الآية[1].

۝٨ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ رخص الله للمسلمين في مبرَّة[2] من

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٨٢).

(٢) في هامش د: «خ: مودة».

لم يقاتلهم[1] من الكفار، واختُلف فيهم على أربعة أقوال:

الأول: أنهم قبائل من العرب منهم خزاعة وبنو الحارث بن كعب؛ كانوا قد صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه، ولا يُعِينوا عليه.

الثاني: أنهم مِن كفار قريش، من لم يقاتل المسلمين ولا أخرجهم من مكة. والآية على هذين القولين منسوخة بالقتال.

الثالث: أنهم النساء والصبيان، وفي هذا ورد أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «نعم صِلِي أمَّك»[2].

الرابع: أنه أراد من كان بمكة من المؤمنين الذين لم يهاجروا. وأما الذين نهى الله عن مودَّتهم لأنهم قاتلوا المسلمين وظاهروا على إخراجهم: فهم كفار قريش.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن، وإنما سماهن مؤمنات لظاهر حالهن. وقد اختُلف في هذا الامتحان على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن تُستحلف المرأة أنها ما هاجرت بسبب بغضها في زوجها، ولا لخوفٍ ولا غير ذلك من أعراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة.

والثاني: أن يُعرض عليها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

والثالث: أن تُعرض عليها الشروط المذكورة بعد هذا؛ مِن ترك الإشراك والسرقة وقتل أولادهن، وترك الزنا والبهتان والعصيان، فإذا أقرَّت بذلك فهو امتحانها، قالته عائشة رضي الله عنها[3].

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ نزلت هذه الآية إثْر صلح الحديبية، وكان ذلك الصلح قد تضمن أن يَردَّ المسلمون إلى الكفار كل من جاء مسلمًا من الرجال والنساء،

(١) في د: «من لم يقاتلوهم في الدين».

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٩١)، ومسلم (١٨٦٦).

فنسخ الله أمْر النساء بهذه الآية، ومنع مِن ردِّ المؤمنة إلىٰ الكفار إذا هاجرت إلىٰ المسلمين، وكانت المرأة التي هاجرت حينئذ أُميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدَّحداحة، وقيل: سُبيعة الأسلمية، ولما هاجرت جاء زوجها فقال: يا محمد ردها علينا، فإن ذلك في الشرط لنا عليك، فنزلت الآية، فامتحنها رسول الله ﷺ فلم يردَّها، وأعطىٰ مهرها لزوجها.

وقيل: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط، هربت من زوجها إلىٰ المسلمين. واختلف في الرجال هل حكمهم في ذلك كالنساء فلا تجوز المهادنة علىٰ ردِّ من أسلم منهم، أو تجوز حتىٰ الآن؟ علىٰ قولين، والأظهر: الجواز؛ لأنه إنما نسخ ذلك في النساء.

﴿لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذا تعليلٌ للمنع من ردِّ المرأة إلىٰ الكفار، وفيه دليل علىٰ ارتفاع النكاح بين المشركين والمسلمات.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ يعني: أعطوا الكفار ما أعطوا نساءهم من الصَّدُقات إذا هاجرن، ثم أباح للمسلمين تزوُّجهن بالصَّداق.

﴿وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ العِصَم: جمع عصمة النكاح، فأمر الله المسلمين أن يفارقوا نساءهم الكوافر، يعني: المشركات من عبدة الأوثان، فالآية علىٰ هذا محكمة. وقيل: يعني: كل كافرة، فعلىٰ هذا: نُسخ منها جواز تزوج الكتابيات بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وروي أن الآية نزلت في امرأة لعمر بن الخطاب ﷺ، كانت كافرة فطلقها[1].

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي: اطلبوا من الكفار ما أنفقتم من الصَّدُقات علىٰ أزواجكم اللاتي فَرَرْنَ إلىٰ الكفار، وليَطلب الكفار منكم ما أنفقوا علىٰ أزواجهم اللاتي هاجرن إلىٰ المسلمين.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ معنىٰ ﴿فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: هروب نساء المسلمين إلىٰ الكفار. والخطاب في قوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ و﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾: للمسلمين.

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٥٨٣) عن ابن شهاب الزهري.

وقوله: ﴿عَاقَبْتُمْ﴾ ليس من العقاب على الذنب، وإنما هو من العُقْبى؛ أي: أصبتم عقبى وهي الغنيمة، أو من التعاقب على الشيء، كما يتعاقب الرجلان على الدابة إذا ركبها هذا مرة وهذا مرة أخرى، فلما كان نساء المسلمين يهربون[1] إلى الكفار ونساء الكفار يهربون[2] إلى المسلمين جَعل ذلك كالتعاقب على النساء.

وسبب الآية: أنه لما قال الله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ قال الكفار: لا نرضى بهذا الحكم، ولا نعطي صَداق من فرَّت زوجته إلينا من المسلمين، فأنزل الله هذه الآية الأخرى، وأمر المسلمين أن يدفعوا الصَّداق لمن فرَّت زوجته من المسلمين إلى الكفار[3].

ويكون هذا المدفوع من مال[4] الغنائم على قول من قال: إن معنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: غنمتم، وقيل: من مال الفيء، وقيل: من الصَّدُقات التي كانت تدفع للكفار إذا فرَّ أزواجهم إلى المسلمين، فأزال الله دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه.

وهذه الأحكام التي تضمنتها هذه الآية قد ارتفعت؛ لأنها نزلت في قضايا معينة، وهي مهادنة النبي ﷺ مع مشركي العرب، ثم زالت هذه الأحكام بارتفاع الهدنة؛ إذ لا تجوز لنا مهادنة المشركين من العرب، إنما هو في حقهم الإسلام أو السيف، وإنما تجوز مهادنة أهل الكتاب والمجوس؛ لأن الله قال في المشركين: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال النبي ﷺ في المجوس: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»[5].

﴿١٢﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ هذه البيعة بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، وكان رسول الله ﷺ يبايعهن بالكلام، ولا تمَسُّ يده يد امرأة، ورد هذا

(١) في د، هـ: «يهربن».

(٢) في د، هـ: «يهربن».

(٣) أخرجه الطبري (٢٢/ ٥٨٦) عن ابن شهاب الزهري.

(٤) لم ترد هذه الكلمة في ب، د.

(٥) تقدم تخريجه.

في الحديث الصحيح عن عائشة ﵂[1]. وقيل: إنه ﷺ لفَّ على يده ثوبًا كثيفًا، ثم لمس النساءُ يده كذلك[2]. وقيل: إنه غمس يده في إناء فيه ماء ثم دفعه إلى النساء فغمسنَ أيديَهن فيه[3].

﴿وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ معناه عند الجمهور: أن تَنسب المرأة إلى زوجها ولدًا ليس له، وكانت المرأة تلتقط الولد فتقول لزوجها: هذا ولدي منك. وإنما قال: ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ لأن بطنَها الذي تحمل فيه الولد بين يديها، وفرجَها الذي تلد به بين رجليها. واختار ابن عطية: أن يكون البهتان هنا على العموم في أن يُنسب إلى الرجل غيرُ ولده، أو يُفترَى على أحد بالقول، أو تكذب المرأة فيما ائتمنها الله عليه من الحيض والحمل وغير ذلك[4]. وإلى هذا أشار بعض الناس بأن قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ يراد به: اللسان والفم، وبين الأرجل يراد به: الفروج

﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: لا يعصينك فيما جاءت به الشريعة من الأوامر والنواهي، ومن ذلك: النهي عن النياحة وشق الجيوب، ووصل الشعر وغير ذلك مما كان نساء الجاهلية يفعلْنه.

وورد في الحديث: أن النساء لما بايعْنَ رسول الله ﷺ هذه المبايعة، فقرَّرهنَّ على أن لا يسرقن قالت هند بنت عتبة -وهي امرأة أبي سفيان بن حرب-: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليَّ إن أخذت من ماله بغير إذنه، قال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، فلما قررهن على أن لا يزنين، قالت هند: يا رسول الله أتزني الحرة؟

(١) أخرجه البخاري (٢٧١١)، ومسلم (١٨٦٦).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٦/ ٣٢٢) عن الشعبي دون إسناد، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٢٧٤) عن الشعبي مرسلا.

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٦/ ٣٢٢) وأخرجه ابن مردويه -كما في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٤٦٣)- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وفي إسناده أبو مطيع البلخي وهو ضعيف (لسان الميزان ٣/ ٢٤٦)، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٤٩) عن عروة بن مسعود الثقفي، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥).

(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٢٨٧).

فقال ﷺ: «لا تزني الحرة»، يعني في غالب الأمر، وذلك أن الزنا في قريش إنما كان في الإماء، فلما قال: ﴿وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ قالت: نحن ربَّيناهم صغارًا وقتلتهم أنت ببدر كبارًا، فضحك رسول الله ﷺ، فلما وقَفهنَّ على أن لا يعصينه في معروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيَك[1].

وهذه المبايعة للنساء غير معمول بها اليوم؛ لأنه أجمع العلماء على أنه ليس على الإمام أن يشترط عليهن هذا، فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ، أو يكون تَرْكُ هذه الشروط؛ لأنها قد تقرَّرت[2] وعُلِمت من الشريعة بالضرورة، فلا حاجة إلى اشتراطها.

﴿١٣﴾ ﴿لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود، وكان بعض فقراء المسلمين يتودَّد إليهم ليصيبوا من أموالهم. وقيل: يعني: كفار قريش، والأول أظهر؛ لأن الغضب قد صار عرفًا لليهود كقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ من قال: إن القوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود: فمعنى ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلآخِرَةِ﴾: يئسوا من خير الآخرة والسعادة فيها. ومن قال: إن القوم الذين غضب الله عليهم هم كفار قريش: فالمعنى: يئسوا من وجود الآخرة وصحَّتها؛ لأنهم مكذبون بها تكذيبًا جزمًا.

وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يريد: كما يئس الكفار المكذِّبون بالبعث من بعث أصحاب القبور، فقوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ﴾ يتعلق بـ﴿يَئِسَ﴾، وهو على حذف مضاف.

والآخر: أن يكون ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ لبيان الجنس؛ أي: كما يئس الكفار الذين في القبور من سعادة الآخرة؛ لأنهم تيقَّنوا أنهم يُعذَّبون[3] فيها.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٩٦) من طريق العوفي عن ابن عباس ﷺ.

(٢) في ب: «قُرِّرت».

(٣) في ب، د: «معذبون».

سورة الحواريين (١)

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

﴿٢﴾ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ **في سببها ثلاثة أقوال:**

أحدها -قول ابن عباس ﷺ-: أن جماعة قالوا: وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى الله فنعمله، ففرض الله الجهاد، فكرهه قوم، فنزلت الآية(٢).

والآخر: أن قومًا من شُبَّان المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا، ويقولون: فعلنا وصنعنا، وذلك كذب، فنزلت؛ زجرًا لهم.

والثالث: أنها نزلت في المنافقين؛ لأنهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن معكم ومنكم، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك، وهذا ضعيف؛ لأنه خاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾،

(١) قال السخاوي في «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص: ٩٢): «سورة الصف، وتسمى سورة الحواريين».

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٦٠٦) من طريق علي والعوفي عنه.

إلا أن يريد أنهم آمنوا بزعمهم، وفيما يُظهِرون. ومع ذلك فحكم الآية على العموم في زجْر مَن يقول ما لا يفعل.

﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ كان بعض السلف يستحيي أن يعظ الناس؛ لأجل هذا الآية، ويقول: أخاف من مقت الله. والمقت: هو البغض لريبة أو نحوها. وانتصب ﴿مَقْتاً﴾ على التمييز، و ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ فاعل ﴿كَبُرَ﴾. وقيل: فاعل ﴿كَبُرَ﴾ محذوفٌ، تقديره: كبر فعلُكم مقتًا، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بدل من الفاعل المحذوف، أو خبر ابتداء مضمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّاً﴾ ورود هذه الآية هنا دليل على أن الآية التي قبلها في شأن القتال. وقال بعض الناس: قتال الرَّجَّالة أفضل من قتال الفرسان؛ لأن التراصَّ فيه يتمكَّن أكثر مما يتمكن للفرسان، قال ابن عطية: هذا ضعيف، خفِي على قائله مقصدُ الآية، وليس المراد نفس التصافِّ[1]، وإنما المقصد: الثبوت والجدُّ في القتال[2].

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ المرصوص: هو الذي ضُمَّ بعضُه إلى بعض. وقيل: هو المعقود بالرصاص، ولا يبعد أن يكون هذا أصل اللفظة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ كانوا يؤذونه بسوء الكلام وبعصيانه وتنقُّصه[3]. وانظر في «الأحزاب» قوله: ﴿لاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ هذا إقامة حجة عليهم، وتوبيخٌ لهم، وتقبيحٌ لإذايته مع علمهم بأنه رسول الله، ولذلك أدخل «قد» الدالة على التَّحقيق.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذه عقوبةٌ على الذنب بذنب. وزَيغ القلب: هو ميله عن الحق.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إنما قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، وقال عيسى عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنه لم يكن له فيهم أبٌ.

---

(١) في أ: «التراصّ».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٢٩٢).

(٣) في أ، د، هـ: «وتنقيصه».

﴿مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرِيٰةِ﴾ معناه مذكور في «البقرة» في قوله: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ﴾ عن كعب: أن الحواريين قالوا لعيسىٰ عليه السلام: يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء[١].

﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس علىٰ قدمي، وأنا العاقب فلا نبي بعدي»[٢]. وأحمد: مشتقٌّ من الحمد، فيَحتمل أن يكون: فعلًا سمِّي به، أو يكون صفة سمي بها كأحمر، ويحتمل أن يكون: بمعنىٰ حامد، أو بمعنىٰ محمود كمحمد.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يحتمل أن يريد: عيسىٰ أو محمد -عليهما الصلاة والسلام-. ويؤيد الأول: اتصاله بما قبله، ويؤيد الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؛ لأن الداعيَ إلىٰ الإسلام هو محمد ﷺ.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ ذكر في «براءة»[٣].

(١) تفسير الثعلبي (٢٦/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) انظر تفسير الآية (٣٢).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿١١﴾ ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ تفسيرٌ للتجارة المذكورة. **قال الأخفش**: هو عطف بيان عليها، **وقال الزمخشري**: هو استئناف[1].

﴿١٢﴾ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ جزمٌ في جواب ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنه بمعنىٰ الأمر، وقد قرأ ابن مسعود ﷺ: «آمنوا وجاهدوا» علىٰ الأمر[2]. **وقال الفراء**: هو جواب ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ ؛ لأنه يقتضي التحضيض.

﴿١٣﴾ ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ارتفع ﴿أُخۡرَىٰ﴾ علىٰ أنه خبر ابتداء مضمر تقديره: ولكم نعمة أخرىٰ، **أو**[3] **انتصب** علىٰ أنه مفعول بفعل مضمر تقديره: ويمنحكم أخرىٰ، **وقيل**: هو مخفوض بالعطف علىٰ ﴿تِجَٰرَةٖ﴾ ، **وهذا ضعيف**.

﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ للأخرىٰ، فهو بدل منها، أو خبر ابتداء مضمر تقديره هي نصْرٌ.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **قال الزمخشري**: عطفٌ علىٰ ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنه في معنىٰ الأمر[4].

﴿١٤﴾ ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ جمع ناصر، وقد غلَب اسم الأنصار علىٰ الأوس والخزرج، وسماهم الله به، وليس ذلك المراد هنا.

---

(١) قال: «كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: ﴿تؤمنون..﴾». الكشاف (١٥/ ٣٩١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٦١٧)، والمحرر الوجيز (٨/ ٢٩٦).

(٣) في ب، ج، د، هـ: «و».

(٤) الكشاف (١٥/ ٣٩٥).

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا التشبيه محمول على المعنى؛ لأن ظاهره: كونوا أنصارًا لله كقول عيسى، والمعنى: كونوا أنصارًا لله كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله. وقد ذكر في «آل عمران» معنى الحواريين و﴿أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ قيل: إنهم ظهروا بالحجة، وقيل: بل غلبوا الكفار بالقتال بعد رفع عيسى عليه السلام، وقيل: إن ظهور المؤمنين منهم هو بمحمد ﷺ.

(١) انظر تفسير الآية (٥١).

سورة الجمعة

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿الْقُدُّوسِ﴾ ذكر في «الحشر»[1].

﴿٢﴾ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ. و﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: هم العرب، وقد ذكر معنىٰ الأُمِّي في «الأعراف»[2].

﴿٣﴾ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾، وأراد بهؤلاء: فارس، سئل رسول الله ﷺ: من هؤلاء الآخَرون؟ فأخذ بيد سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقال: «لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء» يعني: فارس[3]. وقيل: هم الروم. و﴿مِنْهُمْ﴾ علىٰ هذين القولين يريد

(١) انظر تفسير الآية (٢٣).

(٢) انظر تفسير الآية (١٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لو كان الدين..». وأما لفظ: «لو كان العلم..» فأخرجه أحمد في مسنده (٧٩٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون ذكر سلمان.

به: في البشرية وفي الدين، لا في النسب. وقيل: هم أهل اليمن، وقيل: هم التابعون، وقيل: هم سائر المسلمين، والأول أرجح؛ لوروده في الحديث الصحيح.

﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم وسيلحقون، وذلك أن «لمَّا» لنفْي الماضي القريب من الحال.

٤ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلىٰ نبوة محمد ﷺ وهداية الناس به.

٥ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرِىٰةَ﴾ يعني: اليهودَ، ومعنىٰ ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرِىٰةَ﴾ كُلِّفوا العمل بها والقيامَ بأوامرها ونواهيها، و﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: لم يطيعوا[1] أمرها، ولم يعملوا بها، شبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار علىٰ ظهره، ولا يدري ما فيها.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: اليهود الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ وهم الذين حُمِّلوا التوراة ولم يَحْملوها؛ لأن التوراة تنطق بنبوته ﷺ، فكل من قرأها ولم يؤمن به فقد خالف التوراة.

٦ ﴿وَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ ذكر في «البقرة»[2].

(١) في هـ: «يطيقوا».

(٢) انظر تفسير الآية (٩٣).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١

﴿٩﴾ ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ **النداء للصلاة**: هو الأذان لها. و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيانٌ لـ ﴿إِذَا﴾، وتفسير له. و ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يراد به: الخطبة والصلاة.

ويتعلق بهذه الآية ثماني مسائل:

الأولىٰ: اختُلف في الأذان للجمعة هل هو سنة كالأذان لسائر الصلوات؟ أو واجب لظاهر هذه الآية؟ لأنه شرَط في السعي لها أن يكون عند الأذان، والسعيُ واجب فالأذان واجب.

الثانية: كان الأذان للجمعة علىٰ عهد رسول الله ﷺ علىٰ جدار المسجد، **وقيل**: علىٰ باب المسجد، **وقيل**: كان بين يديه ﷺ وهو علىٰ المنبر، وقد كان بنو أمية يأخذون بهذا، وبقي بقرطبة زمانًا، وهو باقٍ بالمشرق إلىٰ الآن.

قال أبو محمد ابن الفَرس: قال مالك في «المجموعة»[1]: إن هشام بن عبد الملك هو الذي أحدث الأذان بين يديه، قال: وهذا دليل علىٰ أن الحديث في ذلك ضعيف[2].

الثالثة: كان المؤذن[3] للجمعة واحدًا، ثم زاد عثمان ﷺ النداءَ علىٰ الزَّوراء[4] ليسمع الناس، واختلف الفقهاء هل المستحب أن يؤذن فيها اثنان أو ثلاثة؟

---

(١) المجموعة علىٰ مذهب مالك وأصحابه، كتاب ألَّفه محمد بن إبراهيم بن عبدوس (ت ٢٦٠هـ) من كبار أصحاب سحنون. انظر: الديباج المذهب (٢/ ١٧٤).

(٢) أحكام القرآن، لابن الفرس (٣/ ٥٥٨)، يعني الحديث الذي جاء أنه كان بين يديه ﷺ أذان، فضعَّفه ابن الفرس بقول مالك هذا، قال: «فلو كان ذلك في زمن النبي ﷺ لم يقل: إنه مُحدث».

(٣) في أ: «الأذان».

(٤) قال القاضي عياض في المشارق (١/ ٣١٥): «هو موضع بالمدينة عند السوق قرب المسجد، وذكر الداودي أنه مرتفع كالمنار».

الرابعة: السعي في الآية بمعنىٰ المشي لا بمعنىٰ الجري، وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ: «فامضوا إلىٰ ذكر الله»[١] وهذا تفسير للسعي، فهو بخلاف السعي في قول رسول الله ﷺ: «إذا نودي للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون»[٢].

الخامسة: حضور الجمعة واجب؛ لحمل الأمر الذي في الآية علىٰ الوجوب باتفاق، إلا أنها لا تجب علىٰ المرأة ولا الصبي ولا المريض باتفاق.

ولا تجب علىٰ العبد والمسافر عند مالك[٣] والجمهور، خلافًا للظاهرية، وتعلقوا بعموم الآية.

وحجة الجمهور: قول رسول الله ﷺ: «الجمعة واجبة علىٰ كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض»[٤]، وحجتهم في المسافر: أن رسول الله ﷺ كان لا يقيم الجمعة في السفر.

واختُلف هل تسقط الجمعة بسبب المطر أم لا؟ وهل يجوز للعروس التخلف عنها أم لا؟ والمشهور: أنها لا تسقط عنهما؛ لعموم الآية.

السادسة: اختلف متىٰ يتعين الإقبال إلىٰ الصلاة؟ فقيل: إذا زالت الشمس، وقيل: إذا أذن المؤذن، وهو ظاهر الآية.

السابعة: اختُلف في الموضع الذي يجب منه السعي إلىٰ الجمعة؟

فقيل: ثلاثة أميال وهو مذهب مالك[٥]، وقيل: ستة أميال، وقيل: تجب علىٰ مَن

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٦٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٥/ ١٦٩).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٦٧) من حديث طارق بن شهاب، وقال: «طارقُ بن شهاب قد رأىٰ النبيَّ ﷺ، ولم يسمع منه شيئًا»، فهو مرسل، ووصله الحاكم (١٠٦٢) بذكر أبي موسىٰ ﷺ فيه، وصححه ووافقه الذهبي، قال البيهقي في السنن (٣/ ٢٤٦): «وليس بمحفوظ»، وقال أيضًا (٣/ ٢٦٠): «هذا الحديث وإن كان فيه إرسال فهو مرسل جيد، فطارق من خيار التابعين.. ولحديثه هذا شواهد»، وصحح إسناده ابن رجب في فتح الباري (٥/ ٣٢٧)، وابن الملقن في البدر المنير (٤/ ٦٣٧)، وجود إسناده ابن كثير في إرشاد الفقيه (١/ ١٩٠).

(٥) وأحمد، وهذا إن كان خارج المصر، وأما أهل المصر فيلزمهم كلهم، قربوا أو بعدوا. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٥/ ١٦١).

داخِلُ المصر، وقيل: على من سمع النداء، وقيل: على من آواه الليل إلى أهله.

الثامنة: اختلف في الوالي هل هو من شرط[1] الجمعة أم لا؟ على قولين، والمشهور: سقوطه؛ لأن الله لم يشترطه في الآية.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أمرٌ بترك البيع يوم الجمعة إذا أخذ المؤذنون في الأذان، وذلك على الوجوب، فيقتضي تحريم البيع. واختلف في البيع الذي يُعقد في ذلك الوقت هل يفسخ أم لا؟

واختلف في بيع من لا تلزمهم الجمعة من النساء والعبيد؛ هل يجوز في ذلك الوقت أم لا؟ والأظهر: جوازه؛ لأنه إنما منع منه مَن يُدعَى إلى الجمعة، ويجري النكاح في ذلك الوقت مجرى البيع في المنع.

﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا الأمر للإباحة باتفاق، حكَى الإجماعَ على ذلك ابن عطية[2] وابن الفرس[3].

﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: معناه طلب المعاش، فالأمر على هذا إباحة، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الفضل المبتغى: عيادة مريض، أو صلة صديق، أو اتباع جِنازة»[4]. وقيل: هو طلب العلم، وإن صح الحديث لم يُعدَل إلى سواه.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ سبب الآية: أن رسول الله ﷺ كان قائمًا على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عِير من الشام بطعام، وصاحب أمرها دِحية بن خليفة الكلبي ﷺ، وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورًا بها، فلما دخلت العير كذلك انفضَّ أهل المسجد إليها، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلًا، قال جابر بن عبد الله ﷺ: أنا أحدهم[5].

---

(١) في أ، هـ: «شروط».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٠٤).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٥٦٣).

(٤) أخرجه الطبري (٢٢/ ٦٤٤) من حديث أبي عامر الصائغ، عن أبي خلف، عن أنس ﷺ مرفوعًا، قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٥٤٣): «أبو عامر الصائغ، عن أبي خلف، عن أنس: قال الأزدي: كان يضع الحديث»، وأبو خلف: قال ابن حجر في التقريب (١١٤١): «متروك»، فالحديث ضعيف جدا.

(٥) أخرجه البخاري (٩٣٦)، ومسلم (٨٦٣) عن جابر ﷺ.

وذكر بعضهم: أن منهم العشرة المشهود لهم بالجنة[١]، واختُلف في الثاني عشر: فقيل: عبد الله بن مسعود ﷺ، وقيل: عمار بن ياسر ﷺ.

وقيل: إنما بقي معه ﷺ ثمانية[٢]، وروي أنه ﷺ قال: «لولا هؤلاء لقد كانت الحجارة سُوِّمت في السماء علىٰ المنفضِّين»[٣].

وظاهر الآية: يقتضي أن الجماعة شرط في الجمعة وهو مذهب مالك والجمهور، إلا أنهم اختلفوا في مقدار الجماعة الذين تنعقد بهم الجمعة؟

فقال مالك: ليس في ذلك عدد محدود، وإنما هم جماعة تقوم بهم قرية، وروىٰ ابن الماجشون عن مالك: ثلاثون[٤]، وقال الشافعي[٥]: أربعون، وقال أبو حنيفة: ثلاثة مع الإمام، وقيل: اثنا عشر، عددَ الذي بقوا مع النبي ﷺ.

فإن قيل: لم قال: ﴿إِنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ بضمير المفرد وقد ذكر التجارة واللهو؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد: انفضوا إلىٰ اللهو وانفضوا إلىٰ التجارة، ثم حَذف أحدهما؛ لدلالة الآخر عليه. قاله الزمخشري[٦].

والآخر: أنه قال ذلك تهمُّمًا بالتجارة؛ إذ كانت أهم، وكانت هي سبب اللهو، ولم يكن اللهو سببَها، قاله ابن عطية[٧].

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ اختلف في القيام في الخطبة هل هو واجب أم لا؟ وإذا قلنا بوجوبه فهل هو شرط فيها أم لا؟ فمن أوجبه واشترطه: أخذ بظاهر الآية من ذكر القيام، ومن لم يوجبه: رأىٰ أن ما فعله النبي ﷺ من ذلك لم يكن علىٰ الوجوب.

---

(١) نقله ابن عطية عن والده. المحرر الوجيز (٨/ ٣٠٥)

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٦/ ٤٣١) من رواية الكلبي عن ابن عباس ﷺ، والكلبي متروك.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٣٦) عن مقاتل بن حيان مرسلًا.

(٤) في ب زيادة: «رجلًا».

(٥) وأحمد في ظاهر المذهب. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٥/ ١٩٨).

(٦) الكشاف (١٥/ ٤٢٠).

(٧) المحرر الوجيز (٨/ ٣٠٥-٣٠٦).

ومذهب مالك[1]: أن مِن سنة الخطبة الجلوس قبلها والجلوس بين الخطبتين. **وقال أبو حنيفة**: لا يجلس بين الخطبتين؛ لظاهرِ الآية، وذِكْرِ القيام فيها دون جلوس. **وحجة مالك**: فعل رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ **إن قيل**: لم قدَّم اللهو هنا علىٰ التجارة وقدم التجارة قبل هذا علىٰ اللهو؟

فالجواب: أن كل واحد من الموضعين جاء علىٰ ما ينبغي فيه؛ وذلك أن العرب تارة يبتدئون بالأكثر ثم ينزلون إلىٰ الأقل، كقولك: «فلان يخون في الكثير والقليل» فبدأت بالكثير ثم أردفت عليه الخيانة فيما دونه، وتارة يبتدئون بالأقل ثم يرتقون إلىٰ الأكثر، كقولك: «فلان أمين علىٰ القليل والكثير» فبدأت بالقليل ثم أردفت عليه الأمانة فيما هو أكثر منه، ولو عُكس في كل واحد من المثالين لم يكن حسنًا؛ فإنك لو قدمتَ في الخيانة ذكر القليل لعُلم أنه يخون في الكثير من باب أولىٰ وأحرىٰ، ولو قدمتَ في الأمانة ذكر الكثير لعُلم أنه أمين في القليل من باب أولىٰ وأحرىٰ، فلم يكن لذكره بعد ذلك فائدة.

وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ قدم التجارة هنا ليبيِّن أنهم ينفضون إليها، وأنهم مع ذلك ينفضون إلىٰ اللهو الذي هو دونها، وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ قدم اللهو ليبين أن ما عند الله خير من اللهو، وأنه أيضًا خير من التجارة التي هي أعظم منه، ولو عكَس كل واحد من الموضعين لم يَحسن.

(١) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٥/ ٢٣٨).

سورة المنافقين

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعَزُّ مِنْهَا ٱلأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فلذلك كذَّبهم الله في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: كذَبوا في دعواهم الشهادة بالرسالة. وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ فليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالىٰ، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرسالة، فوسَّطه بين حكاية قول المنافقين وبين تكذيبهم؛ ليُزيل هذا الوهم وليحقِّق الرسالة، وعلىٰ هذا ينبغي أن يوقف علىٰ قوله: ﴿لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

﴿٢﴾ ﴿جُنَّةً﴾ ذكر في «المجادلة»[1].

(١) انظر تفسير الآية (١٦).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ الإشارةُ إلىٰ سوء عملهم، أو إلىٰ فضيحتهم وتوبيخهم. وأما قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ فيَحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون فيمن آمن منهم إيمانًا صحيحًا، ثم نافق بعد ذلك.

والآخر: أن يريد: آمنوا في الظاهر، كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٣].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني: أنهم حِسانُ الصُّور.

﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ يعني: أنهم فصحاء. والخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ﴾ وفي قوله: ﴿تَسْمَعْ﴾: للنبي ﷺ، ولكل مخاطَب.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ شبَّههم بالخشب في قلة أفهامهم، فكان لهم مَنظر بلا مَخْبر. وقال الزمخشري: إنما شبههم بالخشب المسندة إلىٰ حائط؛ لأن الخُشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة، بخلاف الخشب التي تكون في سَقف أو مغروسةً في جدار؛ فإن فيها حينئذ منفعة، فالتشبيه علىٰ هذا في عدم المنفعة[1]. وقيل: كانوا يستندون في مجلس رسول الله ﷺ، فشبههم في استنادهم بالخشب المسنَدة إلىٰ الحائط[2].

﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ عبارةٌ عن شدَّة خوفهم من المسلمين، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحًا ظنوا أن النبي ﷺ يأمر بقتلهم.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم يتضمن ذمَّهم وتقبيحَ أحوالهم.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الإيمان مع[3] ظهوره؟

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: أمالوها إعراضًا واستكبارًا. وقَصصُ هذه الآية وما بعدها: أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة بني المصطلق، فبلغ الناس إلىٰ ماء ازدحموا عليه، فكان ممن ازدحم جَهْجاه بن سعيد[4] أجير لعمر بن الخطاب ﷺ، وسِنان الجُهني حليفٌ لعبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فلطم

(١) الكشاف (١٥/ ٤٢٩).

(٢) في ب، د: «حائط».

(٣) في ب، د: «بعد».

(٤) الذي سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٠): «جهجاه بن مسعود»، وفي الإصابة (٢/ ٢٦٤): «جهجاه بن سعيد، وقيل: ابن قيس، وقيل: ابن مسعود».

الجهجاه سنانًا، فغضب سنان ودعا بالأنصار ودعا الجهجاه بالمهاجرين، فقال عبد الله بن أبيٍّ: والله ما مَثلنا ومَثلُ هؤلاء -يعني المهاجرين- إلا كما قال الأول: «سَمِّنْ كلبَك يأكلْك»، ثم قال: لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعزِّ: نفسه وأتباعه، ويعني بالأذلِّ: رسول الله ﷺ ومن معه، ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفرُّوا عن مدينتكم، فسمعه زيد بن أرقم ﷺ فأخبر بذلك رسولَ الله ﷺ، فبلغ ذلك عبدَ الله بن أبي، فحلف أنه ما قال شيئًا من ذلك، وكذَّب زيدًا، فنزلت السورة عند ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زيد، وقال له: «لقد صدَّقك الله يا زيد»، فخَزِيَ عبدُ الله بن أبي، ومقته الناس، فقيل له: امض إلىٰ رسول الله ﷺ يستغفرْ لك! فلوَىٰ رأسه إنكارًا لهذا الرأي، وقال: أمرتموني بالإسلام فأسلمت، وأمرتموني بأداء زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني أن أسجد لمحمد! ثم مات عبد الله بن أبيٍّ بعد ذلك بقليل[1].

وأُسندت هذه الأقوال التي قالها عبد الله بن أبيٍّ إلىٰ ضمير الجماعة؛ لأنه كان له أتباع من المنافقين يوافقونه عليها.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ روي أنه لما نزلت ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] قال رسول الله ﷺ: «لأزيدن علىٰ السبعين»[2] فلما فعل عبد الله بن أبيٍّ وأصحابه ما فعلوا شدَّد الله عليهم في هذه السورة، وأخبر أنه لا يغفر لهم بوجه. وفي هذا نظر؛ لأن هذه السورة نزلت في غزوة بني المصطلق قبل الآية الأخرىٰ بمدَّة.

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٦٥٥، ٦٦٧) عن زيد بن أرقم، وعن ابن إسحاق، وهو عند البخاري (٤٩٠٠) ومسلم (٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم ﷺ مختصرًا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٤٠٠) عن ابن عمر ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾

۝٩ ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا تَشغلْكم. و ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ هنا: علىٰ العموم في الصلاة والدعاء والعبادة. وقيل: يعني: الصلاة المكتوبة، والعموم أولىٰ.

۝١٠ ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ عمومٌ في الزكاة وصدقة التطوع والنفقة في الجهاد وغير ذلك. وقيل: يعني: الزكاة المفروضة، والعموم أولىٰ.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالجزم: عطفٌ علىٰ موضع جواب الشرط[1]. وقرأ أبو عمرٍو ﴿وَأَكُونَ﴾ بالنصب عطفٌ علىٰ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾.

(١) والتقدير: إن تؤخرني أصَّدقْ وأكنْ من الصالحين. المحرر الوجيز (٨/ ٣١٦).

سورة التغابن

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ *زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

﴿١﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ **في تأويل الآية وجهان:**

أحدهما: هو الذي خلقكم فكان يجب على كل واحد منكم الإيمان به، لكن منكم من كفر ومنكم من آمن، فالكفر والإيمان على هذا: هو اكتساب العبد.

والآخر: أن المعنى: هو الذي خلقكم على صنفين: فمنكم من خلقه مؤمنًا ومنكم من خلقه كافرًا، فالإيمان والكفر على هذا: هو ما قضى الله على كل أحد.

والأول أظهر؛ لأن عطفه على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالفاء يقتضي أنَّ الكفر والإيمان واقعان بعد الخلقة، لا في أصل الخلقة.

٣ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ذكر معناه في مواضع[١].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تعديد نعمةٍ في حُسنِ خِلقة بني آدم؛ لأنهم أحسن صورة من جميع أنواع الحيوان وإن وجد بعض الناس قبيح المنظر، فلا يخرجه ذلك عن حسْن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيحٌ بالنظر إلىٰ من هو أحسن منه من الناس. وقيل: يعني: العقل والإدراك الذي خُصَّ به الإنسان، والأول أرجح؛ لأن الصورة إنما تنطلق علىٰ الشَّكل.

٥ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ خطاب لقريش وسائر الكفار.

٦ ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ معناه: أنهم استبعدوا أن يرسل الله بشرًا، أو تكبَّروا عن اتباع بشر. والبشر: يقع علىٰ الواحد والجماعة.

٧ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ قال عبد الله بن عمر ﷺ: زعم كناية عن كذب[٢].

٩ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ : ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾، أو ﴿خَبِيرٌ﴾، أو محذوفٌ تقديره: اذكر. ويحتمل أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، يعني: يوم القيامة.

و﴿ٱلتَّغَابُنِ﴾ : مستعارٌ مِن تغابُن الناس في التجارة، وذلك إذا فاز السُّعداء بالجنة، فكأنهم غبَنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون منها لو كانوا سعداء، فالتغابن علىٰ هذا بمعنىٰ الغَبْن، وليس علىٰ المتعارف في صيغة تفاعل من كونها بين اثنين، كقولك: تضارب وتقاتل، إنما هي فعلٌ واحدٍ كقولك: تواضع، قاله ابن عطية[٣].

وقال الزمخشري: يعني: نزول السُّعداء منازل الأشقياء ونزول الأشقياء منازل السعداء، والتغابن علىٰ هذا بين اثنين، قال: وفيه تهكُّم بالأشقياء؛ لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغَبْن للسعداء[٤].

---

(١) انظر تفسير الآية (٥) من سورة يونس، وتفسير الآية (٨٥) من سورة الحجر، وتفسير الآية (٢٦) من سورة ص.

(٢) أخرجه الطبري بإسناده في تفسيره (٢٣/ ٩) إلىٰ ابن عمر ﷺ قال: «زعم: كُنْيَة الكذب».

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٣٤١).

(٤) الكشاف (١٥/ ٤٥٥).

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿١١﴾ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ **يحتمل أن يريد بالمصيبة:** الرزايا، وخصَّها بالذكر لأنها أهم على الناس، أو يريد جميع الحوادث من خير وشر. و ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عبارةٌ عن قضائه وإرادته تعالى.

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قيل: معناه: من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتَّسليم والرِّضا بقضاء الله، وهذا حسَنٌ، إلا أن العموم أحسن منه.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ سببها: أن قومًا أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فحذرهم الله من طاعتهم في ذلك[1].

وقيل: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي[2]، وذلك أنه أراد الجهاد فاجتمع أهله وأولاده[3] فشكَوا من فراقه، فرقَّ لهم ورجع، ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم، فنزلت الآية محذِّرةً من فتنة الأولاد، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾ الآيةَ. ولفظ الآية مع ذلك على عمومه في التحذير ممن يكون للإنسان عدوًّا من أهله وأولاده، سواء كانت عداوتهم بسبب الدين أو الدنيا.

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٤)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٥٨)، والترمذي (٣٣١٧) وصححه، والحاكم (٣٨١٤) وصححه ووافقه الذهبي، عن ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٥) عن عطاء بن يسار.

(٣) في أ، هـ: «وولده».

﴿١٥﴾ ﴿وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ترغيبٌ في الآخرة وتزهيد في الأموال والأولاد، التي فُتن الناس بها.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ قيل: إن هذا ناسخ لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وروي أنه لما نزل ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ شقَّ ذلك على الناس حتىٰ نزل ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1]. وقيل: لا نسخ بينهما؛ لأن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ معناه: فيما استطعتم؛ إذ لا يمكن أن يفعل أحد إلا ما يستطيع، فهذه الآية -على هذا- مُبيِّنة لتلك، وتحرَّزَ بالاستطاعة من الإكراه والنسيان وما لا يؤاخَذ به العبيد[2]. وإعراب ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ظرفية.

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ منصوبٌ بإضمار فعل لا يظهر عند سيبويه. وقيل: هو مفعول بـ ﴿أَنفِقُواْ﴾؛ لأن الخير بمعنىٰ المال. وقيل: هو نعتٌ لمصدر محذوف تقديره: أنفقوا إنفاقًا خيرًا لأنفسكم.

﴿وَمَن يُوقَ﴾ ذكر في «الحشر»[3].

﴿١٧﴾ ﴿إِن تُقْرِضُواْ﴾ ذكر في «البقرة»[4].

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ذكر في «اللغات»[5].

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٩) عن قتادة.

(٢) في د: «العبد».

(٣) انظر تفسير الآية (٩).

(٤) انظر تفسير الآية (٢٤٣).

(٥) انظر المواد (١٤٩)، و (٥٤٠).

سورة الطلاق

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۖ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ۖ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ۚ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ *وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

﴿١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إن قيل: لم نودي النبي ﷺ وحده ثم جاء بعد ذلك خطاب الجماعة؟ فالجواب: أنه لما كان حكم الطلاق يشترك فيه النبي ﷺ وأمته، قيل: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ خطابًا له ولهم، وخُصَّ هو ﷺ بالنداء أولًا تعظيمًا له، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: «يا فلان افعلوا»، أي: افعل أنت وقومك، ولأنه ﷺ هو المبلِّغ إلى

أمته[١]، فكأنه قال: يا أيها النبي إذا طلقت أنت وأمتُك.

وقيل: تقديره: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم، وهذا ضعيف؛ لأنه يقتضي أن هذا الحكم مختصٌّ بأمته دونه. وقيل: إنه خوطب النبي ﷺ بـ﴿طَلَّقْتُمْ﴾ تعظيمًا له، كما تقول للرجل المعظَّم: «أنتم فعلتم»، وهذا أيضًا ضعيف؛ لأنه يقتضي اختصاصه ﷺ بالحكم دون أمته. ومعنىٰ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ هنا: إذا أردتم الطلاق. واختُلف في الطلاق هل هو مباح أو مكروه؟ وأما إذا كان علىٰ غير وجه السنة فهو ممنوع، ولكنه يلزم، وأما اليمين بالطلاق فممنوع[٢].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ تقديره: طلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، ولذلك قرأ عثمان وابن عباس وأبيّ بن كعب ﷺ: «فطلقوهن في قُبُلِ عِدَّتهن»[٣]، وقرأ ابن عمر ﷺ: «لقُبُلِ عدتهن»[٤]، ورويت القراءتان عن رسول الله ﷺ[٥]. ومعنىٰ ذلك كله: أن لا يطلِّقَها وهي حائض، فهو منهي عنه بإجماع؛ لأنه إذا فعل ذلك لم يقع طلاقه في الحال التي أمره الله بها وهو استقبال العدة.

واختلف في النهي عن الطلاق في الحيض هل هو معلَّل بتطويل العدة، أو هل هو تعبُّد؟ والصحيح أنه معلَّل بذلك، وينبني علىٰ هذا الخلاف فروع: منها: هل يجوز إذا رضيت به المرأة أم لا؟ ومنها: هل يجوز طلاقها في الحيض وهي حامل أم لا؟ ومنها: هل يجوز طلاقها قبل الدخول وهي حائض أم لا؟ فالتعليل بتطويل العدَّة يقتضي جواز هذه الفروع، والتعبُّد يقتضي المنع. ومن طلق في الحيض لزمه الطلاق، ثم أُمر بالرجعة علىٰ وجه الإجبار عند مالك[٦]، ودون إجبار عند الشافعي[٧] حتىٰ تطهر، ثم تحيض ثم تطهر،

---

(١) في ب، د: «لأمته».

(٢) في أ، ب: «فهو ممنوع».

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٣٢٧).

(٤) أخرجها مالك في الموطأ (١٨٦٠).

(٥) قراءة «فطلقوهن في قُبُلِ عِدَّتهن» أخرجها مسلم (١٤٧١) من حديث ابن عمر ﷺ، وقراءة «لقُبُلِ عدتهن» أخرجها عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣١٥) من حديث ابن عمر ﷺ أيضًا.

(٦) وأحمد في رواية اختارها ابن أبي موسىٰ.

(٧) وأحمد في ظاهر المذهب. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٢/ ١٧٦).

ثم إن شاء طلق وإن شاء أمسك، حسَبما ورد في حديث ابن عمر ﷺ حين طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر ﷺ للنبي ﷺ فقال له: «**مُرْهُ فليراجعها حتىٰ تطهر ثم تحيض ثم تطهر؛ فإن شاء طلق وإن شاء أمسك**»[1]. واشترط مالك أن يطلقها في طهر لم يمسها فيه؛ لتعتد بذلك الطهر، فإنه إن طلقها في طهر بعد أن جامعها فيه فلا تدري هل تعتد بالوضع أو بالأقراء؟ فليس طلاقًا لعدَّتها كما أمره الله.

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أمَر بذلك لما يُبنَىٰ عليها من الأحكام، في الرجعة والسكنىٰ والميراث وغير ذلك.

﴿لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ﴾ نهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ أن يُخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها أن تخرج هي باختيارها، فلا يجوز لها المبيت عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهارًا إلا لضرورة التصرف، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، فإن كان المسكن مِلكًا للزوج، أو مكترًىٰ عنده لزمه إسكانها فيه، وإن كان المسكن لها فعليه كراؤه مدة العدة، وإن كانت قد أمتعته فيه مدة الزوجية؛ ففي لزوم خَرْجِ[2] العدة له قولان في المذهب، والصحيح لزومه؛ لأن الإمتاع قد انقطع بالطلاق.

﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ **اختُلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدَّة ما هي؟ علىٰ خمسة أقوال:**

الأول: أنها الزنا، فتُخرج لإقامة الحدِّ، قاله الليث بن سعد والشعبي.

الثاني: أنه سوء الكلام مع الأصهار، فتخرج ويسقط حقها من السكنىٰ، ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظًا للنسب، قاله ابن عباس ﷺ[3]، ويؤيده قراءة أبي بن كعب: «إلا أن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١).

(٢) في ب، ج: «خروج»، والمثبت هو الصواب، والإمتاع: هو إعطاء الزوجة للزوج شيئًا في عقد النكاح أو بعده، مثل إمتاعه بسكنىٰ دارها، والمراد بخَرْج العدة: أجرة البيت مدةَ العدة، فإن الأجرة واجبة علىٰ الزوج لها حينئذ. انظر: القوانين الفقهية (٣٦٣)، والبحر المحيط (٢٠/ ٣٦٦)، وشرح ميارة «الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام»، ط. دار الكتب العلمية (١/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ٣٤).

يفحشْنَ عليكم»[١].

الثالث: أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك، فمتىٰ فعلت شيئًا من ذلك سقط حقها في السكنىٰ، قاله ابن عباس ﷺ أيضًا[٢]، **وإليه مال الطبري**[٣].

الرابع: أنه الخروج عن[٤] بيتها خروجَ انتقال، فمتىٰ فعلت ذلك سقط حقها في السكنىٰ، **قال ابن الفرس**: وإلىٰ هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة[٥].

الخامس: أنه النشوز قبل الطلاق، فإذا طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنىٰ، قاله قتادة.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ المراد به: الرجعة عند الجمهور، أي: أحصوا العدة وامتثلوا ما أُمرتم به، لعل الله يحدث الرَّجعة لنسائكم. **وقيل**: المعنىٰ: لعل الله يحدث أمرًا من نسخ هذه الأحكام، **وهذا بعيد**. **وقيل**: إن سبب الرجعة المذكورة في الآية: تطليق النبي ﷺ لحفصة بنت عمر ﷺ، فأمره الله بمراجعتها[٦].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يريد: آخر العدة. **والإمساك بمعروف**: هو تحسين العشرة، وتوفية النفقة. **والفراق بالمعروف**: هو أداء الصَّداق، والإمتاع حين الطلاق، والوفاء بالشروط ونحو ذلك.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ هذا خطاب للأزواج، **والإشهاد المأمور به**: هو علىٰ الرجعة **عند الجمهور**، وقد اختلف فيه هل هو واجب أو مستحب؟ علىٰ قولين في المذهب.

---

(١) ذكرها في المحرر الوجيز (٨/ ٣٢٩)، وفي تفسير عبد بن حميد -كما في الدر المنثور (٤/ ٢٩١)- أن هذه القراءة لأبيٍّ ﷺ في آية سورة النساء [١٩]: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٣٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٦).

(٤) في ب، د: «من».

(٥) أحكام القرآن (٣/ ٥٧٤).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٥٩) -وكما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٤٢)- عن قتادة عن أنس ﷺ، وأخرجه الطبري (٢٣/ ٣٠) عن قتادة مرسلًا.

وقال ابن عباس ﷺ: هو الشهادة على الطلاق وعلى الرجعة[١]، وذلك أظهر؛ لأن الإشهاد به يرفع الإشكال والنزاع، ولا فرق في هذا بين الرجعة والطلاق. وقد ذكرنا العدالة في «البقرة»[٢].

وقوله: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يدل على أنه إنما يَشهد في الطلاق والنكاح الرجالُ دون النساء، وهو مذهب مالك[٣]، خلافًا لمن أجاز شهادة النساء في ذلك. وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعني: من المسلمين، وقيل: من الأحرار، فيؤخذ من ذلك: ردُّ شهادة العبيد، وهو مذهب مالك[٤].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب للشهود. وإقامة الشهادة يحتمل أن يريد به: القيام بها، فإذا استُشهد وجب عليه أن يشهد، وهو فرض كفاية، وإلى هذا المعنى أشار ابن الفرس[٥]، ويحتمل أن يريد: إقامتها بالحق دون ميل ولا غرض، وبهذا فسره الزمخشري[٦]، وهو أظهر؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ فهو كقوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٤].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدم من الأحكام.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ قيل: إنها في الطلاق، ومعناها: من يتق الله فيطلق طلقة واحدة، حسَبما تقتضيه السنة يجعل له مخرجًا بجواز الرجعة متى ندم على الطلاق، وفي هذا المعنى روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال لمن طلق ثلاثًا: إنك لم تتق الله فبانَتْ منك امرأتُك، ولا أرى لك مخرجًا[٧]؛ أي: لا رجعة لك. وقيل: إنها على العموم؛ أي: من يتق الله في أقواله وأفعاله يجعل الله له مخرجًا من كرب الدنيا والآخرة، وقد روي هذا أيضًا

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٤١) من طريق علي بن أبي طلحة عنه ﷺ.
(٢) انظر تفسير الآية (٢٨١).
(٣) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٣٠/ ١٦).
(٤) وأبي حنيفة والشافعي، خلافًا لأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٩/ ٣٩٧).
(٥) أحكام القرآن (٣/ ٥٧٦).
(٦) الكشاف (١٥/ ٤٧١).
(٧) أخرجه أبو داود (٢١٩٧)، وصححه ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٦٢).

عن ابن عباس ﷺ[1]، وهذا أرجح لخمسة أوجه:

أحدها: حمل اللفظ على عمومه، فيدخل في ذلك الطلاق وغيره.

الثاني: أنه روي أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أُسر ولده وضُيق عليه رزقُه، فشكى ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمره بالتقوى، فلم يلبث إلا يسيرًا وانطلق ولده ووسع الله رزقه[2].

والثالث: أنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قرأها فقال: «مخرجًا من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»[3].

والرابع: روي أنه ﷺ قال: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾..» الآيةَ، فما زال يقرؤها ويعيدها[4].

الخامس: قوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فإن هذا لا يناسب الطلاق، وإنما يناسب التقوى على العموم.

قال بعض العلماء: الرزق على نوعين: رزق مضمون لكل حي طولَ عمره، وهو الغذاء الذي تقوم به الحياة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، ورزق موعود للمتقين خاصة، وهو المذكور في هذه الآية.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيهِ بحيث لا يحتاج معه إلى غيره. وقد تكلَّمنا على التوكل في «آل عمران»[5].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٣) من طريق علي بن أبي طلحة عنه ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٥٩) عن محمد بن إسحاق.

(٣) أخرجه الثعلبي (٢٦/ ٥٦٠) عن عطاء بن يسار عن ابن عباس ﷺ، وفي إسناده ابن وهب الدينوري، وهو متروك، وسعيد بن راشد الحنفي وهو منكر الحديث. ميزان الاعتدال، للذهبي (٢/ ١٣٥، ٤٩٤)، فالإسناد ضعيف جدًا.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥٥١)، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٩)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، وابن حبان (٦٦٦٩)، والحاكم (٣٨١٩) وصححه ووافقه الذهبي، من حديث أبي ذر ﷺ.

(٥) انظر تفسير الآية (١٥٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ أي: يَبلغ ما يريد ولا يُعجِزه شيء، وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيد له؛ لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله توكل عليه وحده ولم يعوِّل على سواه[1].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ أي: مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ روي أنه لما نزل قوله: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قالوا: يا رسول الله فما عدة من لا قُرْءَ لها من صِغَرٍ أو كبر؟ فنزلت هذه الآية[2] مُعْلمة أن المطلقة إذا كانت ممن لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، فقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ يعني: التي انقطعت حيضتها لكبر سنها، وقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ يعني: الصغيرة التي لم تبلغ المحيض، وهو معطوف على ﴿ٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾، أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره: واللائي لم يحضن كذلك. وقوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ هو من الريب بمعنى الشك، وفي معناه قولان:

أحدهما: إن ارتبتم في حكم عدتها فاعلموا أنها ثلاثة أشهر.

والآخر: إن ارتبتم في حيضتها[3] هل انقطع أو لم ينقطع.

فهي على التأويل الأول: في التي انقطعت حيضتها لكبرها حسَبما ذكرنا، وهو الصحيح. وهي على التأويل الثاني: في المرتابة وهي التي غابت عنها الحيضة وهي في سن مَن تحيض، وقد اختلف العلماء في عدتها على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ثلاثة أشهر خاصة حسَبما تقتضيه الآية على هذا التأويل. والآخر: أنها ثلاثة أشهر بعد تسعة أشهر تستبرئ بها أمَد الحمل، وهذا مذهب مالك[4]، وقدوته في ذلك عمر بن الخطاب ﷺ. والثالث: أنها تعتد بالأقراء ولو بقيت ثلاثين سنة حتى تبلغ سن من لا تحيض، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة.

---

(١) في ج: «ما سواه».

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٥١)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٦٠)، والحاكم (٣٨٢١) وصححه ووافقه الذهبي، من حديث أبي بن كعب ﷺ.

(٣) في ج: «حيضها».

(٤) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٤/ ٦٨).

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ **هذه الآية عند مالك والشافعي وأبي حنيفة**[1] **وسائر العلماء**: عامة في المطلقات والمتوفَّىٰ عنهن، فمتىٰ كانت إحداهن حاملًا فعدتها وضع حملها.

وقال علي بن أبي طالب[2] **وابن عباس**[3] ﷺ: إنما هذه الآية في المطلقات الحوامل فهن اللاتي عدتهن وضع حملهن، وأما المتوفىٰ عنها إذا كانت حاملًا فعدتها -عندهما- أبعد الأجلين: إما الوضع أو انقضاء الأربعة الأشهر وعشرٍ.

فحجة الجمهور: حديث سبيعة الأسلمية ﷺ أنها كانت تحت سعد بن خولة ﷺ فتوفي في حجة الوداع وهي حبلىٰ، فلما وضعت خطبها أبو السنابل بن بَعْكَك، فسألت رسول الله ﷺ فقال لها: «**انكحي من شئت**»[4]. وقد ذُكر أن ابن عباس ﷺ رجع إلىٰ هذا الحديث لما بلغه، ولو بلغ عليًا ﷺ لرجع إليه.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: إن هذه الآية التي نزلت في سورة النساء القصرىٰ -يعني: سورة «**الطلاق**»- نزلت بعد الآية التي في «**البقرة**»: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤][5]. فهي مخصِّصة لها حسَبما قاله جمهور العلماء.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أمر الله بإسكان المطلقات طول العدة. **فأما المطلقة غير المبتوتة**: فيجب لها علىٰ زوجها السكنىٰ والنفقة باتفاق. **وأما المبتوتة**: **ففيها ثلاثة أقوال**: **أحدها**: أنها يجب لها السكنىٰ دون النفقة، وهو مذهب مالك والشافعي[6]. **والثاني**: أنها يجب لها السكنىٰ والنفقة، وهو مذهب أبي حنيفة. **والثالث**: أنها ليس لها

(١) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٤/ ١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٣٨١)، (١٧٣٨٥)، (١٧٣٨٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١٧١٤)، والبيهقي في السنن (١٥٤٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٩)، ومسلم (١٤٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٣١٨)، ومسلم (١٤٨٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٩١٠).

(٦) وأحمد في إحدىٰ الروايتين.

سكنىٰ ولا نفقة[١].

فحجة مالك: حديث فاطمة بنت قيس ﷺ، وهو أن زوجها طلقها ألبتة، فقال لها رسول الله ﷺ: «**ليس لك عليه نفقة**»[٢]، فيؤخذ من هذا أن لها السكنىٰ دون النفقة.

وحجة من أوجب لها السكنىٰ والنفقة: قول عمر بن الخطاب ﷺ: لا ندع آيةً من كتاب ربنا لقول امرأة، فإني سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «**لها السكنىٰ والنفقة**»[٣].

وحجة من لم يجعل لها لا سكنىٰ ولا نفقة: أن في بعض الروايات عنها أنها قالت: لم يجعل لي رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنىٰ[٤].

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ معناه: أسكنوهن مكانًا من بعض مساكنكم، فـ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، ويفسِّر ذلك قول قتادة: لو لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه[٥].

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ الوُجْد: هو الطاقة والسعة في المال، فالمعنىٰ: أسكنوهن مسكنًا مما تقدرون عليه. وإعرابه: عطف بيان لقوله: ﴿حَيْثُ سَكَنتُم﴾. ويجوز في الوجد ضم الواو وفتحها وكسرها بمعنىٰ واحد، والضم أكثر وأشهر[٦].

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ اتفق العلماء علىٰ وجوب النفقة في العدة للمطلقة الحامل؛ عملًا بهذه الآية؛ سواء كان الطلاق رجعيًا أو بائنًا. واتفقوا علىٰ أن للمطلقة غير الحامل النفقة في العدة إذا كان الطلاق رجعيًا. فإن كان بائنًا فاختلفوا في نفقتها حسَبما ذكرناه.

وأما المتوفَّىٰ عنها إذا كانت حاملًا: فلا نفقة لها عند مالك[٧] **والجمهور**؛ لأنهم رأوا أن

(١) وهو الرواية الأخرىٰ في مذهب أحمد، وهي المذهب. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٤/ ٣١٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

(٤) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

(٥) أخرجه الطبري (٢٣/ ٦٠).

(٦) قراءة السبعة بالضم، وروىٰ روح عن يعقوب بالكسر، وقرأ الأعرج والحسن وأبو حيوة بالفتح. المحرر الوجيز (٨/ ٣٣٣).

(٧) وأحمد في إحدىٰ الروايتين، وهي المذهب.

هذه الآية إنما هي في المطلقات. وقال قوم: لها النفقة في التركة[1].

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المعنىٰ: إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادَكم فآتوهن أجرة الرضاع، وهي النفقة وسائر المؤن حسَبما ذُكر في كتب الفقه.

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هذا خطاب للرجال والنساء، والمعنىٰ: أن يأمر كل واحد صاحبه بخيرٍ، من المسامحة والرفق والإحسان. وقيل: معنىٰ ﴿ائْتَمِرُوا﴾ تشاوروا، ومنه: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ١٩].

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ المعنىٰ: إن تشطَّطت الأم علىٰ الأبِ في أجرة الرضاع، وطلبت منه كثيرًا؛ فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرىٰ بما هو أرفق به، إلا أن لا يقبل الطفل غير ثدي أمه، فتجبر حينئذ علىٰ رضاعه بأجرة مثلها ومِثْل الزوج.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ الآيةَ؛ أمرٌ بأن ينفق كل أحد علىٰ مقدار حاله[2]، ولا يكلَّف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضيَّع الزوجة بل يكون الحال معتدلًا. وفي الآية دليل علىٰ أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس، وهو مذهب مالك[3]، خلافًا لأبي حنيفة فإنه اعتبر الكفاية. ومن عجَز عن نفقة امرأته: فمذهب مالك والشافعي[4] أنها تطلق عليه، خلافًا لأبي حنيفة. وإن عجَز عن الكسوة دون النفقة: ففي التطليق عليه قولان في المذهب.

(١) وهي رواية عن أحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٤/ ٣٢٥).

(٢) في ب، ج: «ماله».

(٣) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٤/ ٤٨٩).

(٤) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٤/ ٣٦٣).

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

﴿٨﴾ ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: حاسبنا أهلها، قيل: يعني: الحساب في الآخرة، وكذلك العذاب المذكور بعده، وقيل: يعني: في الدنيا، وهذا أرجح؛ لأنه ذكر عذاب الآخرة بعد ذلك في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، ولأن قوله: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ و﴿عَذَّبْنَٰهَا﴾ بلفظ الماضي؛ فهو حقيقة فيما وقع، مجاز فيما لم يقع. فمعنىٰ ﴿حَاسَبْنَٰهَا﴾ أي: واخذناهم بجميع ذنوبهم ولم يُغتفر لهم شيء من صغائرها. والعذاب: هو عقابهم في الدنيا. والنُّكُر: هو الشديد الذي لم يُعهد مثله.

﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ الذكر هنا: هو القرآن، والرسول: هو محمد ﷺ. وإعراب ﴿رَّسُولًا﴾: مفعول بفعل مضمر تقديره: أرسل رسولًا، هذا الذي اختاره ابن عطية[1]، وهو أظهر الأقوال.

وقيل: إن الذكر والرسول معًا يراد بهما القرآن، والرسول علىٰ هذا: بمعنىٰ الرسالة. وقيل: إنهما يراد بهما القرآن، علىٰ حذف مضاف تقديره: ذكرًا ذا رسول. وقيل: يراد بهما النبي ﷺ، والذكر من أسمائه، وهذا ضعيف. وقيل: ﴿رَّسُولًا﴾ مفعول بالمصدر الذي هو الذكر. وقال الزمخشري: الرسول هو جبريل ﷺ أُبدل من الذكر؛ لأنه نزل به، أو سمِّي ذكرًا لكثرة ذكره لله[2]، وهذا كله بعيد.

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٣٦).

(٢) الكشاف (١٥/ ٤٨٤).

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لا خلاف أن السماوات سبع، وأما الأرض فاختلف فيها: فقيل: إنها سبع أرضين؛ لظاهر هذه الآية، ولقوله ﷺ: «من غصب شبرًا من أرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرَضين»[1]، وقيل: إنما هي واحدة. فقوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾: على القول الأول: يعني به المماثلة في العدد، وعلى القول الثاني: يعني به المماثلة في عِظَم الجِرْم وكثرة العُمَّار، وغير ذلك، والأول أرجح.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يحتمل أن يريد بالأمر: الوحيَ، أو أحكامَ الله وتدبيره لخلقه.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٠) عن سعيد بن زيد ﷺ.

سورة التحريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ **في سبب نزولها روايتان:**

إحداهما: أن رسول الله ﷺ جاء يومًا إلى بيت زوجه حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ، فوجدها قد مرت لزيارة أبيها، فبعث في جاريته ماريَة فقال معها[1] في البيت، فجاءت حفصة فقالت: يا رسول الله أما كان في نسائك أهون عليك مني؟ أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي؟ فقال لها رسول الله ﷺ مترضِّيًا[2] لها: «أيرضيك أن أحرمها؟»، قالت: نعم، فقال: «إني قد حرَّمتها»[3]. **والرواية الأخرى:** أن رسول الله ﷺ

(١) في د: «فقعد معهما»، وفي هـ: «فدخل معها».

(٢) في ب، ج، د: «مرتضيًا».

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ٨٤-٨٨) عن ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما.

كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلًا، فاتفقت عائشة وحفصة وسودة بنت زمعة على أن تقول له من دنا منها: أكلتَ مَغافير، والمغافير: صمغ العُرْفُط، وهو حلوٌ كريه الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا ولكني شربت عسلًا»، فقلن له: جرسَتْ نحله العرفط[1]، فقال رسول الله ﷺ: «لا أشربه أبدًا»، وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة، فدخل بعد ذلك على زينب فقالت: ألا أسقيك من ذلك العسل؟ فقال: «لا حاجة لي به»[2]. فنزلت الآية عتابًا له على أن يضيِّق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل. والرواية الأولى أشهر، وعليها تكلم الناس في فقه السورة، وقد خرَّج الرواية الثانية البخاري وغيره.

ولنتكلم على فقه التحريم:

فأما تحريم الطعام والمال وسائر الأشياء ما عدا النساء: فلا يلزم، ولا شيء عليه عند مالك، وأوجب عليه أبو حنيفة[3] كفارة.

وأما تحريم الأَمَة: فإن نوى به العتق لزم، وإن لم ينوِ به ذلك لم يلزم، وكان حكمه ما ذكرنا في الطعام.

وأما تحريم الزوجة: فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة: فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم وغيرهم: إنما يلزم[4] فيه كفارة يمين[5]. وقال مالك في المشهور عنه: هي ثلاث تطليقات في المدخول بها، ويُنَوَّى في غير المدخول بها فيُحكم بما نوى من طلقة أو اثنتين أو ثلاث. وقال ابن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين[6]. وروي عن مالك: أنها طلقة بائنة، وقيل: طلقة رجعية.

---

(١) أي: أكلتْ العرفطَ، يقال للنحل: الجوارس. النهاية لابن الأثير (٢/ ٦٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦٨)، ومسلم (١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) وأحمد. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٢/ ٥٠٣).

(٤) في أ، هـ: «تلزم».

(٥) وهو رواية عن أحمد، وقول أبي حنيفة والشافعي. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٢/ ٢٧٠).

(٦) وهو الرواية الثانية عن أحمد، والرواية الثالثة -وهي المذهب-: أنه ظهار. المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٢/ ٢٦٦).

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أي: تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك، يعني: تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة، وهذا يدلُّ على أنها نزلت في تحريم الجارية.

وأما تحريم العسل فلم يقصد به رضا أزواجه، وإنما تركه لرائحته.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في هذا إشارة إلى أن الله غفر له ما عاتبه عليه من التحريم، على أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له، وإنما وقع العتاب على تضييقه ﷺ على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أرَب. وبئس ما قال الزمخشري في أن هذا كان منه زلة؛ لأنه حرَّم ما أحل الله![1] وذلك قلة أدبٍ على منصب النبوة.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ التحِلَّة: هي الكفارة، وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورة «المائدة» من صفتها[2]. واختلف في المراد بها هنا:

فأما على قول من قال: إن الآية نزلت في تحريم الجارية: فاختلف في ذلك: فمن قال: إن التحريم يلزم فيه كفارة يمين استدلَّ بها، ومن قال: إن التحريم يلزم منه[3] طلاق قال: إن الكفارة هنا إنما هي لأن رسول الله ﷺ حلف، فقال: «والله لا أطؤها أبدًا»[4].

وأما على القول بأن الآية نزلت في تحريم العسل: فاختلف أيضًا: فمن أوجب في تحريم الطعام كفارةً قال: هذه الكفارة للتحريم، ومن قال: لا كفارة فيه قال: إنما هذه الكفارة لأنه حلف أن لا يشربه. وقيل: هي في يمينه ﷺ أن لا يدخل على نسائه شهرًا.

﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ يَحتمل أن يكون: بمعنى الولي الناصر، أو بمعنى السيد الأعظم.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ اختُلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه تحريم الجارية، فإنه لما حرمها قال لحفصة: «لا تخبري بذلك أحدًا».

---

(١) الكشاف (١٥/ ٤٩١).

(٢) انظر تفسير الآية (٩١).

(٣) في أ، هـ: «فيه».

(٤) أخرجه أبو داود في المراسيل (٢٤٠) عن قتادة بلفظ: «والله لا أقربها»، وأخرجه الحافظ الضياء في المختارة (١/ ٣٠٠) عن عمر ﷺ، وصحح إسناده، وصححه -أيضًا- ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٥٩).

والآخر: أنه قال[1]: إن أبا بكر وعمر ﷺ يليان الأمر من بعده[2].

والثالث: أنه قوله: «شربت عسلًا»، والأول أشهر. و﴿بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ﴾ هي حفصة ﷺ.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ كانت حفصة قد أخبرت عائشة بما أسرَّ إليها رسول الله ﷺ من تحريم الجارية، فأخبر الله رسوله ﷺ بذلك، فعاتب حفصة على إفشائها لسره وطلَّقها، ثم أمره الله بمراجعتها فراجعها، وقيل: لم يطلقها.

فقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ حذف المفعول وهو عائشة ﷺ، وقوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلعه على إخبارها به. وقيل: معناه: أظهر الله عليه[3] الحديثَ، من الظهور. وقوله: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أي: عاتب حفصة ﷺ على بعضه وأعرض عن بعضه؛ حياء وتكرُّمًا، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلَّات والتقصير في العتاب. وقرئ ﴿عَرَّفَ﴾ بالتخفيف[4]، من المعرفة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: لما أخبر النبي ﷺ حفصة بأنها قد أفشت سره، ظنت أن عائشة هي التي أخبرته به، فقالت له: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، فلما أخبرها أن الله هو الذي أنبأه به سكتت وسلَّمت.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ هذا خطاب لعائشة وحفصة ﷺ، وتوبتهما: مما جرى منهما في قصة تحريم الجارية أو العسل. ومعنى ﴿صَغَتْ﴾: أي: مالت عن الصواب، وقرأ ابن مسعود ﷺ: «زاغت»[5]، والمعنى: إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما يوجب التوبة.

---

(١) في د زيادة: «لحفصة».

(٢) في د: «بعدي».

(٣) أي: على النبي ﷺ. الكشاف (١٥/ ٤٩٧).

(٤) قرأ الكسائي بتخفيف الراء، وقرأ الباقون بالتشديد.

(٥) تفسير الطبري (٢٣/ ٩٣).

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ **المعنىٰ**: إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوؤه من إفراط الغَيرة، وإفشاء سرِّه ونحو ذلك فإن له من ينصره.

و﴿مَوْلَىٰهُ﴾ هنا: يحتمل أن يكون بمعنىٰ السيد الأعظم، فيوقف علىٰ ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ ، ويكون ﴿جِبْرِيلُ﴾ مبتدأ، و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبره وخبر ما عُطف عليه. ويحتمل أن يكون المولىٰ هنا بمعنىٰ: الولي الناصر، فيكون ﴿جِبْرِيلُ﴾ معطوفًا، فيوصل مع ما قبله، ويوقف علىٰ ﴿صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويكون ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبتدأ و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبره، وهذا أظهر وأرجح لوجهين:

أحدهما: أن معنىٰ الناصر أليق بهذا الموضع، فإن ذلك كرامة للنبي ﷺ وتشريفٌ له، وأما إذا كان بمعنىٰ السيد فذلك يشترك فيه النبي ﷺ مع غيره؛ لأن الله تعالىٰ مولىٰ جميع خلقه بهذا المعنىٰ، فليس في ذلك إظهار مزية له.

الوجه الثاني: أنه ورد في الحديث الصحيح: أنه لما وقع ذلك جاء عمر رضي الله عنه إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء؛ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك»[1]، فنزلت الآية موافقةً لقول عمر، فقوله: «معك» يقتضي معنىٰ النصرة.

﴿صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اختلف في ﴿صَٰلِحُ﴾ هل هو مفرد أو جمع محذوف النون للإضافة؟ **فعلىٰ القول بأنه مفرد**: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقيل: علي بن أبي طالب رضي الله عنه. **وعلىٰ القول بأنه جمع**: فهو علىٰ العموم في كل صالح.

۞ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ **الآية**؛ نصرة للنبي ﷺ. وروي أن عمر رضي الله عنه قال ذلك ونزل القرآن بموافقته، ولقد قال عمر رضي الله عنه حينئذ للنبي ﷺ: «والله يا رسول الله لئن أمرتني بضرب عنق حفصة لضربت عنقها»[2]. وقد ذكرنا معنىٰ الإسلام والإيمان والقنوت[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٩).

(٣) انظر تفسير الآية (٣٥) من سورة الأحزاب.

والسائحات: معناه الصائمات، قاله ابن عباس ﷺ[1]، وقد روي عن النبي ﷺ[2].

وقيل: معناه مهاجرات، **وقيل**: ذاهبات إلىٰ الله؛ لأن أصل السياحة الذهاب في الأرض.

وقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ **قال بعضهم**: المراد بالأبكار هنا: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون[3]؛ فإن الله يزوج النبي ﷺ إياهما في الجنة، **وهذا يفتقر إلىٰ نقل صحيح**[4].

ودخلت الواو هنا للتقسيم، ولو سقطت لاختلَّ المعنىٰ؛ لأن الثيوبة والبَكارة لا يجتمعان، **وقال الكوفيون**: هي واو الثمانية، **وذلك ضعيف**.

٦ ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي: أطيعوا الله، وأمروا أهليكم بطاعته؛ لتقوا أنفسكم وأهليكم بطاعته من النار، فعبر بالمسبَّب وهو وقاية النار عن السبب وهو الطاعة.

﴿وَقُودُهَا﴾ ذكر في «البقرة»[5].

﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يعني: زبانية النار. **وغِلَظُهم**[6] **وشدتهم**: **يحتمل أن يريد في** أجرامهم، أو في قسوة[7] قلوبهم.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ **قيل**: إن هذا تأكيد لقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ﴾. **وقيل**: إن معنىٰ ﴿لَّا يَعْصُونَ﴾ امتثال الأمر، ومعنىٰ ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ جِدُّهم ونشاطهم فيما يؤمرون به من عذاب الناس.

٧ ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة. **ويحتمل أن يكون هذا**: خطابًا من الله للكفار، **أو** خطابًا من الملائكة.

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٠١) من طريق العوفي عنه.

(٢) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٩٤) من دون إسناد، ولم أقف علىٰ إسناد له.

(٣) كذا العبارة في جميع النسخ الخطية! ولعل صوابها: «والمراد بالثيبات: آسية امرأة فرعون». انظر: التعريف والإعلام للسهيلي (ص: ٣٤٢).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير -كما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٦) ولم أقف عليه في معجمه- عن بريدة ﷺ.

(٥) انظر تفسير الآية (٢٣).

(٦) في ب: «وغلظتهم».

(٧) في ب، ج: «قساوة».

*يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢

﴿٨﴾ ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ **قال عمر بن الخطاب** ﷺ: التوبة النصوح: هي أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه أبدًا، ولا يريد أن يعود[1]. **وقيل**: معناه: توبة خالصة، فهو من قولهم: عسل ناصحٌ: إذا خلُص من الشمع. **وقيل**: هي أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، كتوبة الثلاثة الذين خُلِّفوا. **وقال الزمخشري**: وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي، والنصح في الحقيقة صفة التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسَهم[2]. وقد تكلَّمنا على التوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١] في «النور».

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ **العامل في ﴿يَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون** ما قبله، أو ما بعده، أو محذوف تقديره: اذكر. والوقف والابتداء يختلف على ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **يحتمل أن يكون معطوفًا على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾، أو مبتدأ وخبره بعده.**

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ **ذكر في «الحديد»**[3].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٦٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٦٣٢)، والحاكم وصححه.

(٢) الكشاف (١٥/ ٥١١).

(٣) انظر تفسير الآية (١٢).

(٩) ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ذكر في «براءة»[١].

(١٠) ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ قيل: اسم امرأة نوح والغة، واسم امرأة لوط والهة، وهذا يفتقر إلىٰ صحة النقل.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال ابن عباس ﷺ: خانت امرأة نوح في أنها كانت تقول: إنه مجنون، وخانت امرأة لوط بأنها كانت تخبر قومه بأضيافه إذا قدموا عليه، وكانتا مع ذلك كافرتين[٢]. وقيل: خانتا بالزنا، وأنكر ابن عباس ﷺ ذلك[٣] وقال: ما زنت امرأة نبي قط؛ تنزيهًا من الله لهم عن هذا النقص.

وضرب الله المثل بهاتين المرأتين للكفار الذين بينهم وبين الأنبياء وسائل، كأنه يقول: لا يُغني أحد عن أحد ولو كان أقرب الناس إليه؛ كقرب امرأة نوح وامرأة لوط من أزواجهما. وقيل: هو مثَل لأزواج النبي ﷺ فيما ذكر في أول السورة، وهذا باطل؛ لأن الله إنما ضربه للذين كفروا. ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ اسمها آسية، وكانت قد آمنت بموسىٰ ﷺ، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فدعت بهذا الدعاء فقبض الله روحها، وروي في قَصصها غير هذا مما يطول وهو غير صحيح.

(١١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ تعني: كفره وظلمه، وقيل: مضاجعته لها، وهذا ضعيف.

(١٢) ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا﴾ يعني: الفرج الذي هو الجارحة، وإحصانها له: هو صيانتها وعِفَّتها عن كل مكروه. وقيل: يعني فرج درعها، وهذا ضعيف.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ عبارةٌ عن نفخ جبريل ﷺ في فرجها، فخلق الله فيه عيسىٰ ﷺ. وأضاف الله الروح إلىٰ نفسه إضافةَ مخلوق إلىٰ خالقه، وفي ذلك تشريف له.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ كلمات ربها: يحتمل أن يريد بها: الكتب التي أنزل[٤]،

---

(١) انظر تفسير الآية (٧٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٣٠)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٦٢)، والحاكم (٣٨٣٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) في الأثر الذي قبله.

(٤) في د: «أنزل الله».

أو كلامه مع الملائكة وغيرهم. و﴿كِتَٰبِهِۦ﴾ بالتوحيد[1]: يحتمل أن يريد به: التوراة، أو الإنجيل، أو جنس الكتب، وقرئ بالجمع يعني: جميع كتب الله.

﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من العابدين. فإن قيل: لم قال ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ بجمع المذكَّر وهي أنثى؟ فالجواب: أن القنوت صفة تجمع الرجال والنساء، فغلَّب الذكور.

(١) قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم بالجمع، وقرأ الباقون بالتوحيد.

سورة الملك

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه السورة كل ليلة إذا أخذ مضجعه(١).

وأنه ﷺ قال: «إنها تنجي من عذاب القبر»(٢).

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ۝٩ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝١٠ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٣ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٤ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٥

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٤٧٦)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٣٥) والحاكم (٣٥٤٥) وقال: «صحيح علىٰ شرط مسلم» ووافقه الذهبي، عن جابر ﷺ، بلفظ: أن النبي ﷺ كان لا ينام حتىٰ يقرأ ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و﴿تبارك الذي بيده الملك﴾.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) وقال: «غريب»، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٧٥) عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا، وفي إسناده يحيىٰ بن عمرو بن مالك النُّكري، وهو ضعيف كما في التقريب (١٠٦٣)، وذكر الذهبي هذا الحديث من مناكيره في الميزان (٤/ ٣٩٩). وأخرجه النسائي في الكبرىٰ (١٠٤٧٩) والحاكم (٣٨٣٩) وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في الأوسط (٦/ ٢١٢) عن ابن مسعود ﷺ موقوفًا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٠): «ورجاله ثقات».

(١) ﴿تَبَٰرَكَ﴾ فعل مشتقٌّ من البرك، وقيل: معناه: تعاظم، وهو مختص بالله تعالىٰ، ولم يُنطق له بمضارع.

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ يعني: مُلك السماوات والأرض والدنيا والآخرة. وقيل: يعني: مُلْك الملوك في الدنيا، فهو كقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، والأول أعمُّ وأعظم.

(٢) ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ يعني: موت الخلق وحياتهم. وقيل: الموت: الدنيا؛ لأن أهلها يموتون، والحياة: الآخرة؛ لأنها باقية، فهو كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وهو علىٰ هذا وصفٌ بالمصدر، والأول أظهر.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم، واختبار الله لعباده إنما هو لتقوم عليهم الحجة بما يصدر منهم، وقد كان الله عَلِمَ ما[1] يفعلون قبل كونه، والمعنىٰ: ليبلوكم فيجازيَكم بما ظهر منكم.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ روي أن رسول الله ﷺ قرأها فقال: «أيكم أحسن عقلًا[2]، وأشدكم لله خوفًا، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»[3].

(٣) ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض. والطِّباق: مصدرٌ وُصفت به السماوات، أو علىٰ حذف مضاف تقديره: ذوات طباق، وقيل: إنه جمع طَبَقة.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: من قلةِ تناسُبٍ وخروج عن الإتقان، والمعنىٰ: أن خلقة السماوات في غاية الإتقان، بحيث ليس فيها ما يَعيبها من الزيادة والنقصان والاختلاف. وقيل: أراد خِلقةَ جميع المخلوقات. ولا شك أن جميع المخلوقات متقنةٌ، ولكن تخصيص الآية بخلقة السماوات أظهر؛ لورودها بعد قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

(١) في ب: «عَلِمَ بما»، وفي د: «عالمًا بما».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «عملًا»، والمثبت موافق لما في الرواية.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٦)، وابن مردويه في تفسيره-كما في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ١٤٥)- والثعلبي (٢٧/ ٨٨) عن ابن عمر ﷺ، وهو من حديث داود بن المحبَّر، رواه في كتاب العقل له كما في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ١٤٥)، وداود قال ابن حجر في التقريب (٣٠٨): «متروك، وأكثر كتاب العقل الذي صنفه موضوعات»، وانظر: تهذيب الكمال (٨/ ٤٤٧).

طِبَاقاً﴾، فكأن قولَه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ بيانٌ وتكميل لما قبله. والخطاب في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ و﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ وما بعده: للنبي ﷺ، أو لكل مخاطَب ليعتبر.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ **الفطور**: الشُّقوق، جمع فَطْر وهو الشَّق. **ورجْعُ البصر**: ترديده في النظر. **ومعنىٰ الآية**: الأمر بالنظر إلىٰ السماء فلا يُرىٰ فيها شِقاق ولا خَلل[1]، بل هي ملتئمة مستوية.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: انظر نظرًا بعد نظر للتثبُّت والتحقيق. **وقال الزمخشري**: معنىٰ التثنية في ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ التكثير، لا مرتين خاصة، كقولهم: «لبيك» فإن معناه إجاباتٌ كثيرة[2].

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ **الخاسئ**: هو المبعَد عن الشيء الذي طَلب، **والحسير**: هو الكليل الذي أدركه التعب. **فمعنىٰ الآية**: أنك إذا نظرت إلىٰ السماء مرة بعد مرة لترىٰ فيها شِقاقًا أو خَللًا رجع بصرك ولم تر شيئًا من ذلك، فكأنه خاسئ؛ لأنه لم يَحصل له ما طلب من رؤية الشقاق والخلل، وهو مع ذلك كليلٌ من شدة النظر وكثرة التأمل.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ **السماء الدنيا**: هي القريبة منا. **والمصابيح**: يراد بها النجوم، فإن كانت النجوم كلها في السماء الدنيا فلا إشكال، وإن كانت في غيرها من السماوات فقد زُيِّنت السماء الدنيا لأنها ظاهرة فيها لنا. ويحتمل أن يريد أنه زيَّن السماء الدنيا بالنجوم التي فيها دون التي في غيرها، علىٰ أن القول بمواضع الكواكب وفي أيِّ سماءٍ هي لم يرد في الشريعة.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: جعلنا منها رجومًا؛ لأن الكواكب الثابتة ليست تَرجم الشياطين، فهو كقولك: «أكرمت بني فلان»: إذا أكرمتَ بعضهم. **والرُّجوم**: جمع رجْمٍ، وهو مصدر سُمِّي به ما يُرجم به.

---

(١) في د: «خلال».

(٢) الكشاف (١٥/ ٥٣٨).

قال الزمخشري: معنىٰ كون النجوم رجومًا للشياطين: أن الشهب تنقضُّ من النجوم لرجم الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء، فالشهب الراجمة منفصلة من نار الكواكب، لا أن الراجمة هي الكواكب أنفسها؛ لأنها ثابتة في الفلك[1].

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: زينةُ السماء، ورجومُ الشياطين، وليهتدَىٰ بها في ظلمات البر والبحر[2].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني: للشياطين.

(٧) ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً﴾ **الشَّهيق:** أقبح ما يكون من صوت الحمار، ويعني به هنا: ما يُسمع من صوت جهنم؛ لشدَّة غليانها وهَوْلها، أو شهيق أهلها، **والأول أظهر.**

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تغلي بأهلها غليان القدر بما فيها.

(٨) (٩) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: تكاد جهنم ينفصل بعضها من بعض؛ لشدَّة غيظها علىٰ الكفار. **فيحتمل أن تكون هي المغتاظة بنفسها، ويحتمل أن يريد غيظ الزبانية، والأول أظهر؛** لأن حال الزبانية يُذكر بعد هذا. **وغيظ النار يحتمل** أن يكون حقيقة بإدراكٍ يخلقه الله لها، أو يكون عبارةً عن شدتها.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي: كلما أُلقي في جهنم جماعة من الكفار سألهم الزبانية: هل جاءكم[3] نذير؟ أي: رسول، وهذا السؤال علىٰ وجه التوبيخ وإقامة الحجة عليهم، ولذلك اعترفوا فقالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾. وقوله: ﴿كُلَّمَآ﴾ يقتضي أن يقال ذلك لكل جماعةٍ تُلقَىٰ في النار.

(١٠) ﴿إِنَ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ **يحتمل أن يكون:** من قول ملائكة النار للكفار، أو من قول الكفار للرسل في الدنيا.

(١١) ﴿وَقَالُواْ﴾ الضمير للكفار؛ أي: لو كنا نسمع كلام الرسل ونعقل الصواب ما كنا في أصحاب السعير.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٥٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩١٣)، والبخاري تعليقًا (٤/ ١٠٧).

(٣) في أ، ب: «جاءهم».

(١٢) ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ اعترافهم هذا في وقتٍ لا ينفعهم الاعتراف. وذنبهم هنا: يراد به تكذيب الرسل.

﴿فَسُحْقاً لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ انتصب ﴿فَسُحْقاً﴾ بفعل مضمرٍ على معنى الدعاء عليهم.

(١٣) ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: وهم غائبون عن الناس، ففي ذلك وصفٌ لهم بالإخلاص.

والآخر: أن الغيب ما غاب عنهم من أمور الآخرة وغيرها، على أن هذا القول إنما يحسن في قوله: ﴿يُومِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

(١٤) ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ المعنى: سواءٌ جهرتم أو أسررتم فإن الله يعلم الجهر والسر.

(١٥) ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ هذا برهان على أن الله تعالى يعلم كل شيء؛ لأن الخالق يعلم مخلوقاته. ويحتمل أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلًا يراد به الخالق، والمفعول محذوفٌ تقديره: ألا يعلم الخالق خَلْقَه، أو يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مفعولًا، والفاعل مضمر تقديره: ألا يعلم الله من خلق، والأول أرجح؛ لأن ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ إذا كان مفعولًا اختصَّ بمن يعقل، والمعنى الأول يعمُّ من يعقل ومن لا يعقل.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ *أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۢ ﴿٣٠﴾

﴿١٥﴾ ﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ فَعول هنا بمعنىٰ: مفعول، أي: مذلولة، فهي كرَكُوب وحَلُوب.

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ ابن عباس ﷺ: هي الجبال[1]، وقيل: الجوانب والنواحي، وقيل: الطرق. والمعنىٰ: تعديد النعمة في تسهيل المشي علىٰ الأرض، فاستعار لها الذَّلَّ والمناكب؛ تشبيهًا بالدواب.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يعني: البعث يوم القيامة.

﴿١٧﴾ ﴿ءَأَمِنتُم﴾ الآية؛ مقصودها التهديد والتخويف للكفار، وكذلك الآية التي بعدها.

﴿تَمُورُ﴾ ذكر في «الطور»[2].

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٢٨) من طريق علي عنه.

(٢) انظر تفسير الآية (٧).

﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿حَاصِباً﴾ يحتمل أن يريد: حجارةً، أو ريحًا شديدة.

﴿نَذِيرِ﴾ بمعنىٰ الإنذار، وكذلك ﴿نَكِيرِ﴾ بمعنىٰ الإنكار.

﴿٢٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ تنبيهٌ علىٰ الاعتبار بطيران الطيور في الهواء من غير شيء يمسكها. و ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ جمع صافَّة، وهي التي تبسط جناحيها للطيران. والقبض: ضم الجناحين إلىٰ الجنب. وعطف ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ علىٰ ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ ؛ لأن الفعل في معنىٰ الاسم تقديره: قابضات. فإن قيل: لِمَ لمْ يقل «قابضات» علىٰ طريقة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؟

فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذُكر بصيغة اسم الفاعل؛ لدوامه وكثرته، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطير[1] قليلًا للاستراحة والاستعانة، فذَكره بلفظ الفعل؛ لقلته.

﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ خطاب للكفار علىٰ وجه التوبيخ والتهديد وإقامة الحجة عليهم. ودخلت «أَمْ» التي يراد بها الإنكار علىٰ «مَنْ» فأدغمت فيها، وكذلك ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾. والضمير في ﴿أَمْسَكَ﴾: لله؛ أي: من يرزقكم إن مَنع الله رزقه.

﴿بَل لَّجُّواْ﴾ أي: تمادوا في العتوِّ والنفور عن الإيمان.

﴿٢٣﴾ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ الآيةَ؛ توقيفٌ علىٰ الحالتين، أيهما أهدىٰ، والمراد بها: توبيخ الكفار. وفي معناها قولان:

أحدهما: أن المشي هنا استعارة في سلوك طريقة الهدىٰ والضلال في الدنيا.

والآخر: أنه حقيقة في المشي في الآخرة؛ لأن الكافر يُحمل إلىٰ جهنم علىٰ وجهه. فأما علىٰ القول الأول: فقيل: إن الذي يمشي مكبًّا: أبو جهل، والذي يمشي سويًّا: محمد ﷺ، وقيل: حمزة، وقيل: هي علىٰ العموم في كل مؤمن وكافر. وقد تمشي هذه الأقوال أيضًا علىٰ القول الثاني.

والمكبُّ: هو الذي يقع علىٰ وجهه، يقال: أكب الرجلُ، وكبَّه غيره، فالمتعدي دون همزة، والقاصر بالهمزة، بخلاف سائر الأفعال.

---

(١) في ب، ج، هـ: «الطائر».

﴿٢٥﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الضمير للكفار، والوعد يراد به: البعث، أو عذابهم في الدنيا.

﴿٢٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ضمير الفاعل للكفار، وضمير المفعول للعذاب الذي يتضمَّنه الوعد.

﴿زُلْفَةً﴾ أي: قريبًا، وقيل: عِيانًا.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ظهر فيها السوء لما حل بهم.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء؛ أي: تطلبون وتستعجلون به. والقائلون لذلك: الملائكة، أو يقال لهم بلسان الحال[1].

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ؛ سببها: أن الكفار كانوا يتمَّنون هلاك النبي ﷺ والمسلمين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله وأهلك من معي أو رحمنا؛ فإنكم لا تنجون من العذاب الأليم على كل حال. والهلاك هنا يحتمل أن يراد به: الموت، أو غيره. ومعنى ﴿مَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: من يمنعهم من العذاب.

﴿٣٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ الآيةَ؛ احتجاجٌ على المشركين. والغَوْر: مصدر وصف به فهو بمعنى غائر؛ أي: ذاهب في الأرض. والمعين: الكثير، واختلف هل وزنه فَعِيل أو مَفعول؟ فالمعنى: إن غار ماؤكم الذي تشربون هل يأتيكم إله غير الله بماء معين؟

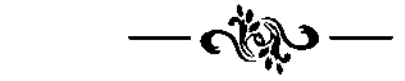

(١) [التعليق ١٠٥] قال الشيخ عبد الرحمن البرّاك: قولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك:٢٧]: أقولُ: نظيرُهُ قولُهُ سبحانه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات:١٤]؛ وهذا معنى ما قاله المؤلِّفُ: أنه افتِعالٌ مِن الدعاءِ؛ بمعنى: طَلَبِ الشيءِ، وعُدِّيَ بالباءِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١].
وقولُ المؤلِّفِ: «والقائلون لذلك: الملائكةُ، أو يقالُ لهم بلسانِ الحالِ»:
أقولُ: منشأُ هذا التردُّدِ: أنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمفعولِ: «قِيلَ»؛ فيَحتمِلُ ما ذكَرَهُ المؤلِّفُ، ويَحتمِلُ أنَّ القائلَ هو اللهُ؛ توبيخًا للكافِرين؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف:٣٤]، الله أعلم.

سورة ن والقلم

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلاَ تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ *فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿١﴾ ﴿نٓ﴾ حرفٌ من حروف الهجاء، وقد تقدم الكلام عليها في «البقرة». ويختص ﴿نٓ﴾ بأنه قيل: إنه حرف من «الرحمن»، فإن حروف الرحمن في ﴿ألٓر﴾ و﴿حمٓ﴾، و﴿نٓ﴾.

وقيل: إن نون[1] هنا يراد به: الحوت، وزعموا أنه الحوت الأعظم الذي عليه الأرَضون السبع، وهذا لا يصح، على أن النون بمعنى الحوت معروف في اللغة، ومنه: ذو

(١) في ب، د: «ن».

النون. وقيل: إن نون هنا يراد به الدَّوَاة، وهذا غير معروف في اللغة.

ويَبطل قول من قال إنه الحوت أو الدَّواة: بأنه لو كان كذلك لكان معربًا بالرفع أو النصب أو الخفض، ولكان في آخره تنوين، فكونه موقوفًا دليل على أنه حرف هجاء نحو ﴿أَلَمَّ﴾ وغيره من حروف الهجاء الموقوفة.

﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ اختُلف فيه على قولين: أحدهما: أنه القلم الذي كُتب به في اللوح المحفوظ، فالضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ للملائكة. والآخر: أنه القلم المعروف عند الناس، أقسم الله به لما فيه من المنافع والحِكَم، والضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ على هذا لبني آدم.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جواب القسم، وهو خطاب لمحمد ﷺ معناه: نفي ما نسبه الكفار له من الجنون. و﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ اعتراضٌ بين ﴿مَآ﴾ وخبرها، كما تقول: «أنت -بحمد الله- فاضل». والمجرور في موضع الحال، وقال الزمخشري: إن العامل فيه: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾[1].

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ذكر في «فصلت»[2].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذا ثناءٌ على خُلُق رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن»[3] تعني: التأدُّب بآدابه وامتثال أوامره.

وعبَّر ابن عباس رضي الله عنهما عن الخلق بالدين والشرع[4]، وذلك رأس الخلق. وتفصيل ذلك: أن رسول الله ﷺ جمع كل فضيلة، وحاز كل خَصلة جميلة، فمن ذلك: شرف النسب، ووفور العقل، وصحة الفهم، وكثرة العلم، وكثرة العبادة، وشدَّة الحياء، والسخاء، والصدق، والشجاعة، والصبر، والشكر، والمروءة، والتؤدة، والاقتصاد، والزهد، والتواضع، والشفقة، والعدل، والعفو، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، وحسن المعاشرة، وحسن التدبير، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس، وحسن الصورة، وغير ذلك،

(١) الكشاف (١٥/ ٥٦٧).

(٢) انظر تفسير الآية (٧).

(٣) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٥٠) من طريق علي والعوفي عنه.

حسَبما ورد في أخباره وسِيَره ﷺ ولذلك قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١].

وقال الجنيد: سمي خُلُقه عظيمًا؛ لأنه لم تكن له همَّةٌ سوى الله ﷻ[٢].

﴿٥﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ قيل: إن ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ هنا بمعنى المجنون، ويحتمل غير ذلك من معاني الفتنة. والخطاب في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ للنبي ﷺ، وفي قوله: ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ لكفار قريش.

واختُلف في الباء التي في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ على أربعة أقوال: الأول: أنها زائدة. الثاني: أنها غير زائدة، والمعنى: بأيكم الفتنة، فأوقع ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ موقع الفتنة، كقولهم: «ما له معقول» أي: عقل. الثالث: أن الباء بمعنى «في»، والمعنى: في أيِّ فريق منكم المفتون، واستَحسن ابنُ عطية هذا[٣]. الرابع: أن المعنى: «بأيكم فتنة المفتون» ثم حَذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿٩﴾ ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ المداهنة: هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، وروي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك، فنزلت الآية[٤].

ولم ينتصب ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ في جواب التمني؛ بل رفْعه بالعطف على ﴿تُدْهِنُ﴾. قاله ابن عطية[٥]. وقال الزمخشري: هو خبر مبتدإ محذوف تقديره: فهم يدهنون[٦].

﴿١٠﴾ ﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحَلِف في الحق والباطل.

﴿مَّهِينٍ﴾ هو الضعيف الرأي والعقل، قال ابن عطية: هو مِن مَهُنَ: إذا ضعف، فالميم فاء

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والحاكم (٤٢٢١) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة ؓ بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٤٣): «ورجاله رجال الصحيح»، وأخرجه البزار (١٥/ ٣٦٤) والبيهقي (٢٠٧٨٢) بلفظ: «مكارم الأخلاق».

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٧/ ١٥٤).

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٣٦٧).

(٤) ذكره في المحرر الوجيز (٨/ ٣٦٨).

(٥) المحرر الوجيز (٨/ ٣٦٨).

(٦) الكشاف (١٥/ ٥٧٣).

الفعل[1]، وقال الزمخشري: هو من المهانة، وهي الذِّلة والحقارة[2]. وقال ابن عباس ﷺ: المهين: الكذاب[3].

﴿١١﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾ هو الذي يَعيب الناس.

﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: كثير المشي بالنميمة، يقال: نميم ونميمة بمعنىٰ واحد، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»[4].

﴿١٢﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: شحيح؛ لأن الخير هنا هو المال. وقيل: معناه: مناع من الخير؛ أي: يمنع الناس من الإسلام، والعمل الصالح.

﴿مُعْتَدٍ﴾ من العدوان، وهو الظلم.

﴿أَثِيمٍ﴾ من الإثم، وهو ارتكاب المحرمات.

﴿١٣﴾ ﴿عُتُلٍّ﴾ أي: غليظ الجسم، قاسي القلب، بعيد الفهم، كثير الجهل.

﴿زَنِيمٍ﴾ أي: ولد زنا، وقيل: هو الذي في عنقه زَنَمةٌ كزنمة الشاة التي تتعلَّق في حلْقها، وقيل: معناه: مريب قبيح الأفعال، وقيل: ظلوم، وقيل: لئيم[5].

وقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكرنا من عيوبه، فهذا الترتيب في الوصف لا في الزمان. واختلف في الموصوف بهذه الأوصاف الذميمة: فقيل: لم يُقصد بها شخصٌ معين، بل كل من اتَّصف بها. وقيل: المقصود بها: الوليد بن المغيرة؛ لأنه وصفه بأنه ذو مال وبنين، وكان كذلك، وقيل: أبو جهل، وقيل: الأخنس بن شَرِيق، ويؤيد هذا: أنه كانت له زنَمة في عنقه، قال ابن عباس ﷺ: عرفناه بزنمته[6]، وكان أيضًا من ثقيف، ويعدُّ في بني زُهرة، فيصح وصفه بزنيم علىٰ القولين، وقيل: الأسود بن عبد يغوث.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٦٨).

(٢) الكشاف (١٥/ ٥٧٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٥٨) من طريق العوفي عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) عن حذيفة ﷺ، ولفظ البخاري: «قتَّات» بدل «نمام».

(٥) في ب، د: «لائم».

(٦) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٦٤) من طريق العوفي عنه.

﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ في موضع مفعول من أجله، متعلِّق بقوله: ﴿لاَ تُطِعْ﴾ أي: لا تطعه بسبب كثرة ماله وبنيه.

ويجوز أن يتعلق بما بعده، والمعنىٰ علىٰ هذا: أنه قال في القرآن: أساطير الأولين؛ لأنه ذو مال وبنين، يتكبَّر بماله وبنيه، والعامل في ﴿أَن كَانَ﴾ علىٰ هذا فعلٌ من المعنىٰ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿قَالَ﴾ الذي هو جواب ﴿إِذَا﴾؛ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، والأول أظهر. وقد تقدم معنىٰ ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[1].

﴿١٦﴾ ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أصل الخرطوم: أنف السَّبُع، ثم استعير للإنسان استخفافًا به، وتقبيحًا له. والمعنىٰ: نجعل له سِمَةً -وهي العلامة- علىٰ خرطومه، واختلف في هذه السِّمَة: فقيل: هي الضربة بالسيف يوم بدر، وقيل: علامة من نار تجعل علىٰ أنفه في جهنم، وقيل: علامة تجعل علىٰ أنفه يوم القيامة؛ ليعرف بها.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: بلونا قريشًا كما بلونا أصحاب الجنة، وكانوا إخوة من بني إسرائيل لهم جنة، روي: أنها بمقربة من صنعاء[2]، فحلفوا أن لا يعطوا مسكينًا منها شيئًا، وباتوا عازمين علىٰ ذلك، فأرسل الله علىٰ جنتهم طائفًا من نار فأحرقتها[3]، فلما أصبحوا إلىٰ جنتهم لم يروها، فحسبوا أنهم أخطؤوا الطريق، ثم تبينوها فعرفوها، وعلموا أن الله عاقبهم فيها بما قالوا، فندموا وتابوا إلىٰ الله.

ووجه تشبيه قريش بأصحاب الجنة: أن الله أنعم علىٰ قريش ببعث محمد ﷺ، كما أنعم علىٰ أصحاب الجنة بالجنة، فكفر هؤلاء بهذه النعمة كما فعل أولئك، فعاقبهم الله كما عاقبهم.

وقيل: شبَّه قريشًا لما أصابهم الجوع بشدة القحط، حين دعا عليهم رسول الله ﷺ؛ بأصحاب الجنة لما هلكت جنتهم.

---

(١) انظر تفسير الآية (٢٦) من سورة الأنعام

(٢) انظر: التعريف والإعلام للسهيلي (٣٤٣).

(٣) في د: «فأحرقها».

﴿إِذَ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا أن يقطعوا غَلَّة جنتهم عند الصباح، وكانت الغلة تمرًا[1].

﴿وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾ في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: لم يقولوا: «إن شاء الله» حين حلفوا ليصرمُنَّها. والآخر: لا يستثنون شيئًا من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم. والثالث: لا يتوقفون في رأيهم ولا ينثنوا[2] عنه؛ أي: لا يرجعون عنه.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾ قال الفراء: الطائف الأمر الذي يأتي بالليل[3].

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فيه أربعة أقوال: الأول: أصبحت كالليل؛ لأنها اسودَّتْ لِما أصابها، والصَّريم في اللغة: الليل. الثاني: أصبحت كالنهار؛ لأنها ابيضَّت كالحصيد، ويقال: «صريم» لليل وللنهار. الثالث: أن الصريم: الرماد الأسود بلغة بعض العرب. الرابع: أصبحت كالمصرومة؛ أي: المقطوعة.

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ أي: نادىٰ بعضهم بعضًا حين أصبحوا، وقال بعضهم لبعض: ﴿ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: جنتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ﴾ لها أي: حاصدين[4] لثمرها.

﴿يَتَخَـٰفَتُونَ﴾ يكلِّم بعضهم بعضًا في السِّر، ويقولون: ﴿لاَّ يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾. و﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ ٱغْدُواْ﴾ و﴿أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا﴾ حرف عبارة وتفسير.

﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ﴾ في الحرد أربعة أقوال: الأول: أنه المنع. والثاني: أنه القصد. الثالث: أنه الغضب. الرابع: أن الحرد اسم علَمٍ للجنة.

و﴿قَـٰدِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون من القدرة؛ أي: قادرين في زعمهم، أو من التقدير بمعنىٰ التضييق؛ أي: ضيَّقوا علىٰ المساكين.

---

(١) في ج، د، هـ: «ثمرًا».

(٢) كذا في النسخ الخطية بحذف النون، وهو معطوف علىٰ فعل مرفوع بثبات النون، فكان الأصل أن يقول: «ولا ينثنون»، ولكن يمكن حمل سقوط النون هنا علىٰ مجرَّد التخفيف، وهي لغة صحيحة، ومنه حديث: «لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا». انظر: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، لابن مالك (٢٣٩).

(٣) معاني القرآن، للفراء (٣/ ١٧٥).

(٤) في د: «قاطعين».

﴿٢٦﴾ ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: أخطأنا طريق الجنة، قالوا ذلك لما لم يعرفوها، فلما عرفوها ورأوا ما أصابها قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حَرمنا الله خيرها.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: خيرهم وأفضلهم، ومنه: ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٢] أي: خِيارًا.

﴿لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تقولون: «سبحان الله». وقيل: هو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه، وقيل: أراد الاستثناء في اليمين بقولهم[1]: «إن شاء الله»، والأول أظهر؛ لقولهم بعد ذلك: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ﴾، والمعنىٰ: أن هذا الذي هو أفضلُهم كان قد حضَّهم علىٰ التسبيح.

﴿٣٠﴾ ﴿يَتَلاَوَمُونَ﴾ أي: يلوم[2] بعضهم بعضًا علىٰ ما كانوا عزموا عليه من منع المساكين، أو علىٰ غفلتهم عن التسبيح، بدليل قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿عَسىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ﴾ يَحتمل أنْ طلبوا البدل: في الدنيا، أو في الآخرة، والأول أرجح؛ لأنه روي عن ابن مسعود ﷺ أن الله أبدلهم جنةً يَحمل البغل منها عنقودًا[3].

﴿٣٣﴾ ﴿كَذَلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش.

(١) في أ، ج، هـ: «كقولهم».

(٢) في أ: «يلوموا».

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٧/ ٢٢٤) دون إسناد.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ *فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿٣٥﴾ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الهمزة للإنكار؛ أي: كيف يُسوِّي الله بين المسلمين والمجرمين؟ بل يجازي كل أحد بعمله، **والمراد بالمجرمين** هنا: الكفار.

﴿٣٦﴾ ﴿مَا لَكُمْ﴾ توبيخ للكفار، و﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿لَكُمْ﴾ خبره، **وتمَّ الكلام هنا؛ فينبغي أن يوقف عليه.**

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ توبيخ آخر، أي: كيف تحكمون بأهوائكم وتقولون ما ليس لكم به علم؟

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ هذه الجملة معمول ﴿تَدْرُسُونَ﴾ ، وكان أصل ﴿إِنَّ﴾ الفتح وكسرت لأجل اللام التي في خبرها، و﴿تَخَيَّرُونَ﴾ معناه: تختارون لأنفسكم. **ومعنى الآية:** هل لكم كتاب من عند الله تدرسون فيه أنَّ لكم ما تختارونه لأنفسكم.

﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ **المعنى: هل حلفنا لكم أيمانًا أن لكم ما تحكمون؟**

ومعنىٰ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: ثابتة واصلة إلىٰ يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ هو جواب القسم الذي يقتضيه[1] الأيمان، ولذلك أكده بـ﴿إِنَّ﴾ واللام. و﴿مَا تَحْكُمُونَ﴾ هو اسم ﴿إِنَّ﴾، دخلت عليه اللام المؤكدة.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: يا محمد! اسأل قريشًا أيهم زعيم بهذه الأمور؟ والزَّعيم: هو الضَّامن للأمر، القائمُ به.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ هذا تعجيز للكفار، ومعناه: إن كان لكم شركاء يقدرون علىٰ شيء فأتوا بهم.

واختلف هل قوله: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ في الدنيا؛ أي: أحضروهم حتىٰ يُرىٰ حالهم؟ أو هل يقال لهم ذلك يوم القيامة؟ والشُّركاء: هم المعبودون من الأصنام وغيرها. وقال الزمخشري: معناه: أم لكم ناسٌ يشاركونكم في هذا القول، ويوافقونكم عليه؟ فأتوا بهم، يعني: أنهم لا يوافقهم أحد عليه[2]. والأول أظهر.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال المتأولون: ذلك عبارة عن هول يوم القيامة وشدَّته، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينادي منادٍ يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيَتْبَع الشمس من كان يعبد الشمس، ويتبع القمر من كان يعبد القمر، ويتبع كل أحد ما كان يعبد، ثم تبقىٰ هذه الأمة وغُبَّرات[3] من أهل الكتاب معهم منافقوهم فيقال لهم: ما شأنكم؟ فيقولون: ننتظر ربنا، قال: فيجيئهم الله في غير الصورة التي عرفوه، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال فيقول: أتعرفونه بعلامة ترونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون: نعم أنت ربنا ويخرُّون للسجود فيسجد كل مؤمن، وترجع أصلاب المنافقين عظمًا واحدًا فلا يستطيعون سجودًا»[4]. وتأويل الحديث كتأويل الآية[5].

---

(١) في أ: «تقتضيه».

(٢) الكشاف (١٥/ ٥٩٤).

(٣) جمع غُبَّر: أي: بقايا. النهاية لابن الأثير (٧/ ٢٩٦٥)

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) [التعليق ١٠٦] قال الشيخ عبد الرحمن البرَّاك: قولُ المؤلِّفِ ﷺ: «﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢]؛ قال المتأوِّلون: ذلك عبارةٌ عن هَوْلِ يومِ القيامةِ وشِدَّتِهِ...»، إلخ: أقولُ: اكتفىٰ المؤلِّف ﷺ بذكرِ قولِ المتأوِّلين في الآية، وهو أنَّ معنىٰ «يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»؛ أي: يُكشَفُ عن هَوْلِ يومِ القيامة، والساقُ علىٰ هذا هي الشِّدَّةُ، =

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ تفسيره في الحديث الذي ذكرنا. **فإن قيل**: كيف يُدعون في الآخرة إلىٰ السجود وليست الآخرة دار تكليف؟ **فالجواب**: أنهم يدعون إليه علىٰ وجه التوبيخ لهم علىٰ تركهم السجود لله في الدنيا، لا علىٰ وجه التكليف والعبادة.

﴿٤٣﴾ ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: قد كانوا في الدنيا يُدعون إلىٰ السجود فيمتنعون منه، وهم سالمون في أعضائهم قادرون عليه.

﴿٤٤﴾ ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ تهديدٌ للمكذبين بالقرآن. وإعراب ﴿مَن يُكَذِّبُ﴾ مفعول معه، أو معطوف. وقد ذكرنا في «**الأعراف**» ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وما بعده[1].

﴿٤٦﴾ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ معناه: أنت لا تسألهم أُجرةً علىٰ الإسلام فتثقل عليهم، فلا عذر لهم في تركهم الإسلام. وقد فسرنا هذا وما بعده في «**الطور**»[2].

﴿٤٨﴾ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يقتضي مسالمة للكفار، نُسخت بالسيف.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام، وسماه صاحب الحوت؛ لأن الحوت ابتلعه، وهو أيضًا ذو النون، والنون هو الحوت. وقد ذكرنا قصته في «**الأنبياء**»[3] و«**الصافات**»[4]. فنهىٰ الله محمدًا ﷺ أن يكون مثله في الضجر والاستعجال حتىٰ ذهب مغاضبًا. **وروي** أن هذه الآية نزلت لما همَّ النبي ﷺ أن يدعو علىٰ الكفار.

= ومِن معاني الساق في اللغة: الشِّدَّةُ؛ كقولِه تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة:٢٩]؛ أي: اتصَلَتِ الشِّدَّةُ بالشِّدَّةِ عند الموت، وذكَرَ المؤلِّفُ الحديثَ، وأجراه مُجْرَىٰ الآية.

والقولُ الثاني - الذي أعرَضَ عنه المؤلِّفُ -: أنَّ المرادَ بالساقِ: ساقُ اللهِ تعالىٰ؛ كما في روايةٍ في الصحيح: «فَيَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ» [أخرجه البخاري (٤٩١٩)؛ من حديث أبي سعيد ﷺ]؛ فالحديثُ يفسِّرُ الآيةَ، فيكونُ معناها: يومَ يَكشِفُ ربُّنا عن ساقِه.

ويؤيِّدُ ذلك: أنه حينئذٍ يسجُدُ له كلُّ مَن كان يسجُدُ في الدنيا استجابةً وطاعة، ويَعجِزُ المنافِقونَ عن السجود؛ كما يدُلُّ لذلك الآيةُ والحديث، والآيةُ تَحتمِلُ القولَيْن، وتفسيرُها بما دَلَّ عليه الحديثُ أولىٰ؛ فإنَّ السُّنَّةَ تفسِّرُ القرآن.

(١) انظر تفسير الآية (٨٦).

(٢) انظر تفسير الآية (٣٨).

(٣) انظر تفسير الآية (٨٦).

(٤) انظر تفسير الآية (١٣٩).

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ هذا آخر ما جرىٰ ليونس ﷺ، ونداؤه: هو قوله في بطن الحوت: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. والمكظوم: الشَّديد الحزن.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ هذا جواب ﴿لَّوْلَآ﴾، والمنفي هو الذمُّ، لا نَبْذُه بالعراء؛ فإنه قد قال في «الصافات»: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ [الصافات: ١٤٥]، فالمعنىٰ: لولا رحمة الله لنُبذ بالعراء وهو مذموم، لكنه نبذ وهو غير مذموم. وقد ذكرنا العراء في «الصافات»[١].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ عبارة عن شدة عداوتهم. و﴿إِنْ﴾ مخفَّفة من الثقيلة، بدليل دخول اللام.

و﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ معناه: يُهلكونك، كقولك: «نظر فلان إلىٰ عدوِّه نظرًا كاد يَصرعه»، وأصله: مِن زلق القدم. وقرئ بفتح الياء وضمها[٢]، وهما لغتان.

وقيل: إن المعنىٰ: يأخذونه بالعين، وكان ذلك في بني أسد، كان الرجل منهم يجوع ثلاثة أيام فلا يتكلم علىٰ شيء إلا أصابه بالعين، فأراد بعضهم أن يصيب النبي ﷺ فعصمه الله من ذلك[٣]. وقال الحسن: دواء الإصابة بالعين قراءة هذه الآية[٤].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: القرآن؛ أي: هو موعظة وتذكير للخلق.

(١) انظر تفسير الآية (١٤٥).

(٢) قرأ نافع بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها.

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٧/ ٢٥٩) عن الكلبي.

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٧/ ٢٦٣) دون إسناد.

سُورَةُ ٱلْحَآقَّةِ

ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرِيٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِالْقَارِعَةِ ﴿٣﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ ﴿٤﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٥﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ
وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعِيٰ كَأَنَّهُمُۥٓ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٦﴾ فَهَلْ تَرِيٰ
لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٧﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَالْمُوتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِيَةِ ﴿٨﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمُۥٓ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿٩﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١٠﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَتَعِيَهَآ أُذْنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١١﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٢﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا
دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٤﴾ وَانشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٥﴾ وَالْمَلَكُ
عَلَيٰ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٦﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفِيٰ مِنكُمْ
خَافِيَةٌ ﴿١٧﴾ *فَأَمَّا مَنُ اُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اُقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٨﴾ إِنِّيَ ظَنَنتُ أَنِّيَ
مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿١٩﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢٠﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢١﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٢﴾ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ
هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٣﴾ وَأَمَّا مَنُ اُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴿٢٤﴾ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمُ
اُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمَ اَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنِيٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾
هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ
ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُومِنُ بِاللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَيٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ اِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَاكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

﴿١﴾ ﴿٢﴾ **﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾** هي القيامة، ووزنها فَاعِلة. **وسميت الحاقة**: لأنها تَحِقُّ، أي: يصحُّ وجودها، ولا ريب في وقوعها، أو لأنها حَقَّت[1] لكل أحد جزاء عمله، أو لأنها تبدي حقائق الأمور.

(١) في ب: «حَقَّقت».

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ﴿مَا﴾ استفهامية يراد بها التعظيم، وهي مبتدأ وخبرها ما بعده، والجملة خبر ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾. وكان الأصل: «الحاقة ما هي؟»، ثم وضع الظاهر موضع المضمر زيادةً في التعظيم والتهويل.

وكذلك ﴿وَمَآ أَدْرِىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ لفظه الاستفهام، والمراد به: التعظيم والتهويل.

(٣) ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ هي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تَقرع القلوب بأهوالها.

(٤) ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ يعني: الصيحة التي أخذت ثمود، وسميت بذلك لأنها جاوزت الحدَّ في الشدة. وقيل: الطاغية مصدر، فكأنه قال: أهلكوا بطُغيانهم، فهو كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]، وقيل: هي صفة لمحذوف تقديره: أهلكوا بسبب الفِعلة الطاغية، أو الفئة الطاغية. والباء على هذين القولين: سببية، وعلى القول الأول: كقولك: «قتلت زيدًا بالسيف».

(٥) ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ ذكر في «فصلت»[١].

﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي شديدة، وسميت بذلك؛ لأنها عَتتْ على عاد، وقيل: عَتت على خُزَّانها[٢]، فخرجت بغير إذنهم.

(٦) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ روي أنها بدأت صبيحة يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال، وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكملةَ الشهر[٣].

﴿حُسُومًا﴾ ابن عباس ﷺ: معناه: كاملةً متتابعة لم يتخلَّلْها غير ذلك[٤]. وقيل: معناه شؤمًا ونَحسًا، وقيل: هو جمع حاسم، من الحسْم وهو القطع؛ أي: قطعتهم بالإهلاك. فـ﴿حُسُومًا﴾ على القولين الأولين: مصدر في موضع الحال، وعلى الثالث: حال، أو مفعول من أجله.

---

(١) انظر تفسير الآية (١٥).

(٢) في د: «خزنتها».

(٣) ذكره في المحرر الوجيز (٨/ ٣٨٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٣/ ٢١٢) من طريق علي عنه.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ جمع صريع، وهو المطروح بالأرض. والضمير المجرور يعود على منازلهم؛ لأن المعنى يقتضيها وإن لم يتقدم ذكرها، أو على الأيام والليالي، أو على الريح.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تقدم في «القمر» معنى تشبيههم بأعجاز النخل[1]. والخاوية: هي التي خَلتْ من طول بِلَاها وفسادِها.

﴿مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي: من بقيَّة، وقيل: من فئة باقية، وقيل: إنه مصدر بمعنى البقاء.

﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ يريد: من تقدم قبله من الأمم الكافرة، وأقربهم إليه قوم شعيب، والظاهر أنهم المراد؛ لأن عادًا وثمود قد ذُكرَا، وقوم لوط هم المؤتفكات، وقوم نوح قد أشير إليهم في قوله: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾. وقرئ ﴿فِبَلَهُ﴾ بكسر القاف وفتح الباء[2]، ومعناه: جنده وأتباعه.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ إما أن يكون مصدرًا بمعنى الخطيئة، أو صفةً لمحذوف تقديره: بالفِعلة الخاطئة.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ إن عاد الضمير على فرعون وقومه: فالرسول موسى عليه السلام، وإن عاد على المؤتفكات: فالرسول لوط عليه السلام، وإن عاد على الجميع: فالرسول اسم جنس، أو بمعنى الرسالة.

﴿رَّابِيَةً﴾ أي: عظيمة، وهو من قولك: ربا الشيء: إذا كثر.

﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ عبارة عن كثرته، فيحتمل أن يريد: أنه طغى على أهل الأرض، أو على خُزَّانه، يعني: وقت طوفان نوح عليه السلام.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ هي السفينة، فإن أراد سفينة نوح: فمعنى ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾: حملنا آباءكم؛ لأن كل مَن على الأرض من ذرية نوح عليه السلام وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه في السفينة، وإن أراد جنس السفن: فالخطاب على حقيقته.

---

(١) انظر تفسير الآية (٢٠).

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر القاف وفتح الباء، وقرأ الباقون بفتح القاف وإسكان الباء.

﴿١١﴾ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ الضمير للفِعلة، وهي الحَمل في السفينة. وقيل: للسفينة، فإن أراد جنس السفن: فالمعنىٰ: أنها تذكرة بقدرة الله ونعمته لمن ركبها أو سمع بها، وإن أراد سفينة نوح: فقد قيل: إن الله أبقاها حتىٰ رأىٰ بعضَ عِيدانها أوائلُ هذه الأمة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ الضمير يعود علىٰ ما عاد عليه ضمير ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، وهذا يقوِّي أن يكون للفعلة.

والأذن الواعية: هي التي تفهم ما تسمع وتحفظه، يقال: وَعَيْتُ العلم: إذا حصَّلتَه، ولذلك عبَّر بعضهم عنها بأنها التي عقَلت عن الله. وروي أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ»، قال عليّ: فما نسيت بعد ذلك شيئًا سمعته[1].

قال الزمخشري: إنما قال: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ بالتوحيد والتنكير؛ للدلالة علىٰ قلة الوعاة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة علىٰ أن الأذن الواحدة إذا عقَلت عن الله تعالىٰ فهي المعتبَرة عند الله دون غيرها[2].

﴿١٢﴾ ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ يعني: نفخة الصَّعق، وهي الأولىٰ.

﴿١٣﴾ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا﴾ الضمير للأرض والجبال. ومعنىٰ ﴿دُكَّتَا﴾: ضرب بعضها ببعض حتىٰ تندقَّ، وقال الزمخشري: والدكُّ أبلغ من الدقِّ[3]، وقيل: معناه: بسطت حتىٰ تستويَ الأرض والجبال.

﴿١٤﴾ ﴿وَفَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة، وقيل: صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٢٢٢) عن مكحول، قال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١١): «وهو حديث مرسل»، وأخرجه الثعلبي (٢٧/ ٢٨٨) عن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، مرسلًا، وهو ضعيف جدًّا، فيه إسحاق بن محمد بن مروان عن أبيه، ولا يحتج بحديثه، وأبوه السدي الصغير متروك متهم بالكذب. ميزان الاعتدال (١/ ٢٠٠)، (٤/ ٣٢)، وقد عدَّ شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الحديث من الموضوعات في كتب التفسير، في مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٥٤).

(٢) الكشاف (١٥/ ٦١٣).

(٣) الكشاف (١٥/ ٦١٦).

﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: مسترخية ساقطة القوة، ومنه قولهم: «دار واهية» أي: ضعيفة الجُدرات.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ الملك هنا: اسم جنس.

والأرجاء: الجوانب، واحدها رَجا -مقصور-، والضمير يعود على السماء، والمعنى: إن الملائكة يكونون يوم القيامة على جوانب السماء؛ لأنها إذا وهت وقفوا على أطرافها. وقيل: يعود على الأرض؛ لأن المعنى يقتضيه، وإن لم يتقدم ذكرها، وروي في ذلك أن الله يأمر الملائكة فتقف صفوفًا على جوانب الأرض، والأول أظهر وأشهر.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ابن عباس ﷺ: هي ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم أحد عدَّتهم[1]. وقيل: ثمانية أملاك، رؤوسهم عند العرش وأرجلهم تحت الأرض السابعة، ويؤيد هذا: ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة قوَّاهم الله بأربعة سواهم»[2].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ خطاب لجميع العالم، والعرض: البعث و[3]الحساب.

﴿خَافِيَةٌ﴾ أي: حالٌ خافية من الأعمال والسرائر. ويَحتمل المعنى: لا يخفى من أجسادكم شيء؛ لأنهم يُحشرون حفاة عراة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الكتاب هنا: صحائف الأعمال.

﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ﴿هَاؤُمُ﴾ اسم فعل، قال ابن عطية: معناه: تعالوا[4]. وقال الزمخشري: هو صوت يفهم منه معنى: «خُذْ»، و﴿كِتَابِيَهْ﴾ مفعولٌ يطلبه ﴿هَاؤُمُ﴾ و﴿اقْرَءُوا﴾ من طريق المعنى، تقديره: «هاؤم كتابي اقرؤوا كتابي» ثم حُذف[5] لدلالة الآخر عليه[6].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٢٢٨)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٧٠) من طرق عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٢٢٩) عن ابن إسحاق قال: بلغنا أن النبي ﷺ.. وذكره. قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٨٥): «وهو معضل».

(٣) في أ، هـ: «أو».

(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٢).

(٥) أي: حذف مفعول ﴿هاؤم﴾.

(٦) الكشاف (١٥/ ٦٢١).

وعَمل فيه العامل الثاني -وهو ﴿اقْرَءُوا﴾- عند البصريين، والعامل الأول -وهو ﴿هَآؤُمُ﴾ - عند الكوفيين. والدليل على صحة قول البصريين: أنه لو أُعمل الأول لقال: «اقرؤوه».

والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ للوقف، وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾. وكان الأصل أن تسقط في الوصل، لكنها ثبتت فيه مراعاةً لخطِّ المصحف، وقد أسقطها في الوصل بعضهم.

ومعنى الآية: أن العبد الذي يُعطى كتابه بيمينه يقول للناس: «اقرؤوا كتابيه» على وجه الاستبشار والسرور بكتابه.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ الظن هنا: بمعنى اليقين.

﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضا، كقولهم: «تامِرٌ» لصاحب التمر، قال ابن عطية: ليست بناء اسم فاعل[1]. وقال الزمخشري: يجوز أن يكون اسم فاعل، نُسب الفعل إليها مجازًا، وهو لصاحبها حقيقة[2].

﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطْف -بكسر القاف-[3] وهو ما يُجتنَى من الثمار ويقطف كالعنقود.

﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة، وروي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها على أيِّ حال كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع[4].

﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: قدمتم من الأعمال الصالحة.

﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: الماضية، يعني: أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ هم الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾، فجعل علةَ إعطائهم كتبهم[5] بشمالهم عدمَ إيمانهم.

---

(١) أي: أنها على النَّسَب، وليست بناء اسم فاعل؛ إذ هي بمعنى: مرضيَّة. المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٣)، وانظر: الدر المصون للسمين الحلبي (١٠/ ٤٣٤).

(٢) الكشاف (١٥/ ٦٢٢).

(٣) قوله «بكسر القاف» زيادة من أ، هـ.

(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٣٣).

(٥) في أ، د: «كتابهم».

وأما المؤمنون فيعطون كتبهم[1] بأيمانهم، لكن اختلف فيمن يدخل النار منهم، هل يعطىٰ كتابه قبل دخوله النار؟ أو بعد خروجه منها؟ وهذا أرجح لقوله: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ ؛ لأن هذا كلام مسرور، فيبعد أن يقوله من يُحمل إلىٰ النار.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: يتمنىٰ أنه لا يعطاه[2] كتابه. وقال ابن عطية: يتمنىٰ أن يكون معدومًا لا يجري عليه شيء[3]، والأول أظهر.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي: ليت الموتة الأولىٰ كانت القاضية، بحيث لا يكون بعدها بعثٌ ولا حياة.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ يحتمل أن يكون نفيًا، أو استفهامًا يراد به النفي.

﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: زال عني ملكي وقدرتي، وقيل: ذهبت عني حجتي.

﴿خُذُوهُ﴾ خطاب للزبانية، يقوله لهم: الله تعالىٰ، أو الملائكة بأمر الله[4].

﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: اجعلوا غُلًّا في عنقه، وروي أنها نزلت في أبي جهل[5].

﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ معنىٰ ﴿ذَرْعُهَا﴾: أي مبلغ أذرع كَيلها.

واختلف في هذا الذراع، فقيل: إنه الذراع المعروف، وقيل: هو بذراع الملَك، وقيل: في الذراع سبعون باعًا، كل باع كما بين مكة والكوفة. ولله در الحسن البصري في قوله: الله أعلم بأيِّ ذراع هي![6]

وجعلها سبعين ذراعًا؛ لإرادة وصفها بالطول، فإن السبعين من الأعداد التي تَقصد بها العرب التكثير. ويحتمل أن تكون هذه السلسلة لكل واحد من أهل النار، أو تكون بين جميعهم، وقد حكىٰ الثعلبي ذلك[7].

---

(١) في أ، ج، د: «كتابهم».

(٢) في د: «لا يعطىٰ».

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٣).

(٤) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البرَّاك برقم (٨٤).

(٥) أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج كما في الدر المنثور (١٤/ ٦٨٠).

(٦) ذكره الثعلبي (٢٧/ ٣١٣)، والواحدي في البسيط (٢٢/ ١٧٩) دون إسناد.

(٧) أي: حكىٰ الاحتمال الثاني. تفسير الثعلبي (٢٧/ ٣١٥-٣١٦).

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: أدخلوه، وروي أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج على دبره[1]، فـ﴿اسْلُكُوهُ﴾ على هذا من المقلوب في المعنى، كقولهم: «أدخلتُ القَلَنْسُوة في رأسي». وروي: أنها تُلوَى عليه حتى تَغُمَّه وتضغطه[2]، فالكلام على هذا على وجهه وهو المسلوك فيها.

وإنما قدم قوله: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾ على ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ لإرادة الحصر؛ أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة. وكذلك قدَّم ﴿الْجَحِيمَ﴾ على ﴿صَلُّوهُ﴾ لإرادة الحصر أيضًا.

﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يحتمل أنْ أراد إطعام المسكين، فوضع الاسم موضع المصدر، أو يُقدَّر: «لا يحض على بذل طعام المسكين».

وأضاف الطعام إلى المسكين؛ لأن له إليه نسبة. ووصْفُه بأنه لا يحض على طعام المسكين يدلُّ على أنه لا يُطعمه من باب أولى وأحرى. وهذه الآية تدل على عِظَم الصدقة وفضلها؛ لأنه قرن منع طعام المسكين بالكفر بالله.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: ليس له صديق. والآخر: ليس له شراب، ولا طعام إلا من غسلين، فإن الحميم: الماء الحار، والغسلين: صديد أهل النار عند ابن عباس رضي الله عنهما[3]، وقيل: شجر يأكله أهل النار، وقال اللغويون: هو ما يجري من الجراح إذا غُسلت، وهو «فِعْلين» من الغَسل.

﴿الْخَاطِئُونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمِّدًا، والمخطئ: الذي يفعله بغير تعمُّد.

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٢٣٨)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٧٢).

(٢) ذكره في المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٥)، والكشاف (١٥/ ٦٢٦).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ٢٤٠) من طريق علي عنه.

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ «لا» زائدة غير نافية.

﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ **يعني**: جميع الأشياء؛ لأنها تنقسم إلىٰ ما يُبصَر وما لا يبصر، كالدنيا والآخرة، والإنس والجن، والأجسام والأرواح، وغير ذلك.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جواب القسم، والضمير للقرآن. **والرسول الكريم**: جبريل، **وقيل**: محمد عليهما الصلاة والسلام.

﴿٤١﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ **قال ابن عطية**: يحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾ نافيةً، فنفىٰ إيمانهم بالجملة، أو تكون مصدرية، فوصف إيمانهم بالقِلَّة[1]. **وقال الزمخشري**: القلة هنا بمعنىٰ العدم؛ أي: لا تؤمنون ولا تَذَّكَّرون ألبتةَ[2].

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ **التقوُّل**: هو أن ينسب إلىٰ أحد ما لم يَقل. **ومعنىٰ الآية**: لو تقوَّل علينا محمد لعاقبناه، ففي ذلك برهان علىٰ أن القرآن[3] من عند الله.

﴿٤٥﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ **ابن عباس** ﷺ: اليمين هنا: القوة[4]، ومعناه: لو تقوَّل علينا لأخذناه بقوتنا. **وقيل**: هي عبارة عن الهوان، كما يقال لمن يُسجَن: أُخِذ بيده وبيمينه.

وقال الزمخشري: معناه: لو تقوَّل علينا لقتلناه، ثم صور صورة القتل ليكون أهول،

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٧).

(٢) الكشاف (١٥/ ٦٣٠).

(٣) في ب زيادة: «كلام الله وهو..».

(٤) ذكره الثعلبي (٢٧/ ٣٢٠)، والواحدي في البسيط (٢٢/ ١٩٠).

وعبر عن ذلك بقوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾؛ لأن السيَّاف إذا أراد أن يضرب المقتول في جيده أخذ بيده اليمنىٰ؛ ليكون ذلك أشد عليه؛ لنظره إلىٰ السيف[1].

﴿٤٦﴾ ﴿الْوَتِينَ﴾ نياط القلب، وهو عرقٌ إذا قُطع مات صاحبه، فالمعنىٰ: لقتلناه.

﴿٤٧﴾ ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ الحاجز: المانع، والمعنىٰ: لو عاقبناه لم يمنعه أحد منكم ولم يدفع عنه عقابنا[2]. وإنما جمع ﴿حَاجِزِينَ﴾؛ لأن ﴿أَحَدٍ﴾ في معنىٰ الجماعة.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ الضمير: للقرآن، وقيل: لمحمد ﷺ، والأول أظهر.

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: حسرة عليهم في الآخرة؛ لأنهم يتأسَّفون إذا رأوا ثواب المؤمنين.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ قال الكوفيون: هذا من إضافة الشيء إلىٰ نفسه، كقولك: مسجد الجامع.

وقال الزمخشري: المعنىٰ: عين اليقين، ومحض اليقين[3]، وقال ابن عطية: ذهب الحذاق[4] إلىٰ أن الحق مضاف إلىٰ الأبلغ من وجوهه[5].

(١) الكشاف (١٥/ ٦٣٢).

(٢) في أ، هـ: «عقابًا».

(٣) الكشاف (١٥/ ٦٣٤).

(٤) عبارته: ذهب البصريون والحذاق..

(٥) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٨)، يعني: أنه من باب إضافة المترادفين علىٰ سبيل المبالغة، كما تقول: هذا يقين اليقين، وصواب الصواب. انظر: البحر المحيط (٢٠/ ٢٠١)، والدر المصون (١٠/ ٢٣٢)، فقول الزمخشري وابن عطية واحد، وهو قول البصريين.

سورة المعارج

سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿١﴾ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ من قرأ ﴿سَأَلَ﴾ بالهمز[1]: احتمل معنيين: أحدها: أن يكون بمعنىٰ الدعاء؛ أي: دعا داعٍ بعذاب واقع، وتكون الإشارة إلىٰ قول الكفار: «أمطر علينا حجارة من السماء»، وكان الذي قالها النضر بن الحارث. والآخر: أن يكون بمعنىٰ الاستخبار؛ أي: سأل سائل عن عذاب واقع، والباء علىٰ هذا بمعنىٰ: «عن»، وتكون الإشارة إلىٰ قولهم: «متىٰ هذا الوعد؟» وشبه ذلك.

(١) قرأ نافع وابن عامر بألف من غير همز، وقرأ الباقون بالهمز.

وأما من قرأ ﴿سَالَ﴾ بغير همز: فيحتمل وجهين: الأول: أن يكون مخفَّفًا من المهموز، فيكون فيه المعنيان المذكوران. والثاني: أن يكون من سال السيل: إذا جرىٰ، ويؤيد ذلك: قراءة ابن عباس ﷺ: «سال سَيْلٌ»[1]، وتكون الباء علىٰ هذا كقولك: «ذهبت بزيد».

وإذا كان من السيل احتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون شبَّه العذاب في شدته وسرعة وقوعه بالسيل.

وثانيهما: أن يكون حقيقة، قال زيد بن ثابت ﷺ: في جهنم واد يقال له: سائل[2].

فتلخَّص من هذا: أن في القراءة بالهمز[3] معنيين، وفي القراءة بغير همز أربعة معان.

(٢) ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل أن يتعلَّق بـ﴿وَاقِعٍ﴾، وتكون اللام: بمعنىٰ «علىٰ»، أو تكون صفة للعذاب. أو يتعلق بـ﴿سَالَ﴾ إذا كانت بمعنىٰ: دَعا، أي: دعا للكافرين بعذاب. أو يكون مستأنفًا، كأنه قال: هو للكافرين.

(٣) ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يتعلق بـ﴿وَاقِعٍ﴾؛ أي: واقع من عند الله، أو بـ﴿دَافِعٌ﴾؛ أي: ليس له دافع من عند الله، أو يكون صفة لـ﴿عَذَابٍ﴾،أو مستأنفًا.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ جمع مَعْرَج، وهو المصعد إلىٰ علوٍ، كالسُّلَّم والمدارج التي يُرتقىٰ بها. قال ابن عطية: هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة[4]، وقيل: هي المراقي إلىٰ السماء، وهذا أظهر؛ لأنه فسَّرها بما بعدها من عروج الملائكة والروح إليه، أي: إلىٰ عرشه، ومن حيث تهبط أوامره وقضاياه[5]، فالعروج: هو من الأرض إلىٰ العرش[6].

---

(١) انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني (٢/ ٣٣٠)، والمحرر الوجيز (٨/ ٤٠١).

(٢) عزاه إلىٰ زيد بن ثابت ﷺ في المحرر الوجيز (٨/ ٤٠١)، ولم أقف عليه من قوله، وفي تفسير الطبري (٢٣/ ٢٤٩): «قال ابن زيد [يعني: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم]: قال بعض أهل العلم: هو واد في جهنم يقال له: سائل».

(٣) في أ، ب، ج، هـ زيادة: «يحتمل»!

(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٤٠١).

(٥) في هـ: «وقضاؤه».

(٦) [التعليق ١٠٧] قال الشيخ عبد الرحمن البرَّاك: قولُ المؤلِّفِ ﷺ: «قال ابنُ عطيَّة: «هي هنا مستعارةٌ في الفضائلِ والصفاتِ الحَمِيدة»: أقولُ: يريدُ ابنُ عطيَّةَ: أنَّ المعارِجَ أمورٌ معنويَّةٌ، وهي صفاتُ الكمالِ؛ فلا تدلُّ علىٰ علوِّ الذاتِ في حقِّه تعالىٰ، بل علىٰ علوِّ القَدْر، وهذا يتفِقُ مع مذهبِ نفاةِ علوِّ اللهِ بذاتِه. =

والروح هنا: جبريل ﷺ بدليل قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]. **وقيل: الروح:** ملائكة حفَظة على الملائكة، **وهذا ضعيف مفتقر إلى صحة نقله، وقيل: الروح:** جنس أرواح الناس وغيرهم.

۝٤ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ **اختلف في هذا اليوم على قولين:**

أحدهما: أنه يوم القيامة. والآخر: أنه في الدنيا.

والصحيح: أنه يوم القيامة لقول رسول الله ﷺ في حديث مانع الزكاة: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا صُفِّحت له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد»[1] يعني: يوم القيامة.

ثم اختلف هل مقداره خمسون ألف سنة حقيقة؟ وهذا هو الأظهر، أو هل وُصف بذلك لشدة أهواله؟ كما يقال: «يوم طويل» إذا كان فيه مصائب وهموم. وإذا قلنا إنه في الدنيا: فالمعنى: أن الملائكة والروح يعرجون في يوم لو عَرج فيه الناس لعرجوا في خمسين ألف سنة، وقيل: الخمسون ألف سنة هي مدة الدنيا، والملائكة تعرج وتنزل في هذه المدة. وهذا كله على أن يكون قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ يتعلق بـ﴿تَعْرُجُ﴾ ، ويحتمل أن يكون ﴿فِي يَوْمٍ﴾ صفةً للعذاب، فيتعين أن يكون اليوم يوم القيامة، والمعنى على هذا مستقيم.

۝٥ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ هذا متصل بما قبله من العذاب وغيره، أي: اصبر على أقوال الكافرين حتى يأتيهم العذاب، ولذلك وصفه بالقرب؛ مبالغةً في تسلية النبي ﷺ.

= ولكنَّ ابنَ جُزَيٍّ ﷺ رجَّح أنَّ المعارجَ هي المَصاعِدُ إلى السماء؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، ولكنه قال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى عرشِهِ.

وهذا تأويلٌ بصرفِ الكلامِ عن ظاهِرِه، وهو أنها تعرُجُ إلى الله، ولا مُوجِبَ لهذا التأويلِ إلا النَّزْعةُ إلى نفيِ العلوِّ الذي هو مذهَبُ القومِ.

وقد جاء في السُّنَّةِ: ما يشهدُ لظاهِرِ الآية، وهو قولُهُ صلى الله عليه وسلم: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ»، وفيه: «ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي...»؛ الحديثَ [أخرجه البخاري (٧٤٢٩)، ومسلم (٦٣٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

والصوابُ في الآيةِ: أنَّ الملائكةَ والرُّوحَ تَعرُجُ إلى اللهِ.

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة ﷺ.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على العذاب، أو على اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة. والبعيد يحتمل أن يراد به بُعْد الزمان، أو بُعْد الإمكان. وكذلك القرب يحتمل أن يراد به قرب الزمان؛ لأن كل آت قريب، ولأن الساعة قد قربت، أو قرب الإمكان؛ لقدرة الله عليه.

﴿٨﴾ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ هنا: بدل من ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، أو بدل من الضمير المنصوب في ﴿نَرِيهُ﴾. أو منصوب بقوله: ﴿قَرِيبًا﴾، أو بقوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾، أو بفعل مضمر تقديره: اذكر، أو: يقعُ العذاب يوم تكون السماء كالمهل.

والمهل: هو دُرْدِيُّ الزيت[1]، شبَّه السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة، وقيل: هو ما أذيب من الفضة ونحوها، شبَّه السماء به في تلوُّنه.

﴿٩﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ العِهن: هو الصوف، شبَّه الجبال به في انتفاشه وتخلخل[2] أجزائه، وقيل: هو الصوف المصبوغ ألوانًا، فكيون التشبيه في الانتفاش، وفي اختلاف الألوان؛ لأن الجبال منها بيض وسود وحمر.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ الحميم هنا: الصديق، والمعنىٰ: لا يَسأل أحدٌ من حميمِه نصرةً ولا إغاثة[3]؛ لعلمه أنه لا يقدر له علىٰ شيء، وقيل: لا يسأله عن حاله؛ لأن كل أحد مشغول بنفسه.

﴿١١﴾ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يقال: بَصُرَ الرجلُ بالرجل: إذا رآه، وبصَّرتُه إياه -بالتشديد-: إذا أريتَه إياه. والضميران يعودان علىٰ الحميمين؛ لأنهما في معنىٰ الجمع. والمعنىٰ: أن كل حميم يُبَصَّر حميمَه يوم القيامة فيراه، ولكنه لا يسأله.

﴿١٢﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ يعني: امرأته.

﴿١٣﴾ ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ يعني: القرابة الأقربين.

---

(١) هو ما يبقىٰ في أسفله. «لسان العرب» مادة (درد).

(٢) في ج، د: «وتخلل».

(٣) في أ، هـ: «إعانة».

﴿تُؤْوِيهِ﴾ أي: تضمُّه، فيحتمل أن يريد: تضمه في الانتماء إليها، أو في نصرته وحفظه من المضرَّات.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الفاعل الافتداء الذي يقتضيه ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ ، وهذا الفعل معطوف على ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾، وإنما عطَفه بـ﴿ثُمَّ﴾ إشعارًا ببعد النجاة وامتناعها، ولذلك زجره عن ذلك بقوله: ﴿كَلَّآ﴾.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ الضمير للنار؛ لأن العذاب يدل عليها، ويحتمل أن يكون ضميرَ القصة وفسَّره بالخبر. و﴿لَظَىٰ﴾ علَم لجهنم، مشتقٌّ من اللظىٰ بمعنىٰ اللهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ الشَّوىٰ: أطراف الجسد، وقيل: جلد الرأس، فالمعنىٰ: أن النار تنزعها ثم تعاد. و﴿نَزَّاعَةً﴾ بالرفع[1]: بدل من ﴿لَظَىٰ﴾، أو خبر ابتداء مضمر، أو خبرٌ لـ﴿إِنَّهَا﴾ إن جعلنا ﴿لَظَىٰ﴾: منصوبًا علىٰ التخصيص أو بدلًا من الضمير، أو خبرٌ ثان لـ﴿إِنَّهَا﴾ إن جعلنا ﴿لَظَىٰ﴾ خبرًا لها. و﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنصب: حال.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعني: الكفار الذين تولوا عن الإسلام، ودعاؤها لهم: عبارة عن أخذها لهم. وقال ابن عباس ﷺ: تدعوهم حقيقة بأسمائهم وأسماء آبائهم[2]. وقيل: معناه: تُهلِك، حكاه الخليل عن العرب[3].

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ يقال: أوعيتُ المال وغيره: إذا جمعتَه في وعاء. فالمعنىٰ: جمع المال وجعله في وعاء، وهذه إشارة إلىٰ قوم من أغنياء الكفار جمعوا المال من غير حِلِّه ومنعوه من حقِّه.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الإنسان هنا: اسم جنس، بدليل الاستثناء منه. وسئل أحمد بن يحيىٰ -مؤلف «الفصيح»- عن الهَلوع؟ فقال: قد فسَّره الله فلا تفسيرَ أَبْيَن من تفسيره، وهو قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[4]. وذكر الله ذلك علىٰ وجه

(١) روىٰ حفص عن عاصم بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع.

(٢) ذكره الثعلبي (٢٧/ ٣٥٤)، والواحدي في الوسيط (٢٤/ ٢٢٢)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٨/ ٤٠٦).

(٣) ذكره الثعلبي (٢٧/ ٣٥٤)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٨/ ٤٠٦).

(٤) نقله في الكشاف (١٦/ ١٨).

الذمّ لهذا الخُلُق، ولذلك استثنىٰ منه المصلين؛ لأن صلاتهم تحملهم علىٰ قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزَعون من شرها ولا يبخلون بخيرها.

﴿٢٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ **الدوام عليها**: هو المواظبة بطول العمر، **والمحافظة عليها** المذكورة بعد هذا: هي أداؤها في أوقاتها وتوفية الطهارة لها.

﴿٢٤﴾ ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ قد ذكرنا في «الذاريات» معنىٰ ﴿حَقٌّ﴾، والسائل والمحروم[١]. **ووصفه هنا بالمعلوم إن أراد الزكاة**: فهي معلومة المقدار شرعًا، وإن أراد غيرها: فمعنىٰ المعلوم: أن العبد يجعل علىٰ نفسه وظيفةً معلومة عنده.

﴿٢٨﴾ ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يكون أحد آمنًا منه؛ فإن الأمن من عذاب الله حرام، فلا ينبغي للعبد أن يزول عنه الخوف حتىٰ يدخل الجنة.

﴿٣٢﴾ ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ ذكر في «المؤمنين»، وكذلك ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾[٢].

﴿٣٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ **قال ابن عباس** ﷺ: يعني: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[٣]. **وقال الجمهور**: يعني: الشهادة عند الحكام، ثم اختلف علىٰ هذا في معنىٰ القيام بها؟ فقيل: هو التحقيق لها، كقوله ﷺ: «علىٰ مثل الشمس فاشهد[٤]»[٥]، وقيل: هو المبادرة إلىٰ أدائها من غير امتناع.

فأما إن دعي الشاهد إلىٰ الأداء: فهو واجب عليه. **وأما إذا لم يُدع إلىٰ الأداء**: **فإن الشهادة علىٰ ثلاثة أقسام**:

أحدها: حقوق الناس، فلا يجوز أداؤها حتىٰ يدعوَه صاحب الحق إلىٰ ذلك.

---

(١) انظر تفسير الآية (١٩).

(٢) انظر تفسير الآية (٥).

(٣) ذكره في المحرر الوجيز (٨/ ٤١٠) ولم أقف عليه مسندًا.

(٤) في ب، هـ: «فاشهدوا».

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء، ط. دار الكتب العلمية (٧/ ٤٣٠)، والحاكم (٧٠٤٥) والبيهقي (٢٠٥٧٩) عن ابن عباس ﷺ، وصححه الحاكم، وتعقَّبه الذهبي بقوله: «واهٍ، فيه عمرو بن مالك البصري، قال ابن عدي: كان يسرق الحديث، ومحمد بن سليمان بن مشمول ضعفه غير واحد» مختصر تلخيص الذهبي، لابن الملقن (٥/ ٢٥١٥)، وضعفه ابن حجر في البلوغ (٣٥٨).

والثاني: حقوق الله التي يستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق والأحباس، فيجب أداء الشهادة بذلك، دُعي أو لم يدع.

الثالث: حقوق الله التي لا يستدام فيها التحريم كالحدود، فهذا ينبغي ستره حتىٰ يُدعىٰ إليه.

عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ * فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين مقبلين إليك بأبصارهم، كان رسول الله ﷺ إذا صلّى أقبل إليه الكفار ينظرون إليه ويستمعون قراءته. ومعنى ﴿قِبَلَكَ﴾: في جهتك وما يليك.

﴿٣٧﴾ ﴿عِزِينَ﴾ أي: جماعاتٍ شتى وهو جمع عِزَة -بتخفيف الزاي-، وأصله: عِزْوَة، وقيل: عِزْهَة، ثم حذفت لامها وجمعت بالواو والنون عوضًا من اللام المحذوفة.

﴿٣٨﴾ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كانوا يقولون: إن كان ثَم جنة فنحن أهلها.

﴿٣٩﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عما طمعوا فيه من دخول الجنة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كنايةٌ عن المنيِّ الذي خلق منه الإنسان. **وفي المقصود بهذا الكلام ثلاثة أوجه:**

الأول: تحقير الإنسان والردُّ على المتكبرين، كما قال بعضهم: إن الإنسان خلق من نطفة مَذِرة[1]، ويصير جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العَذِرة.

الثاني: الردُّ على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة، كأنه يقول: إنا خلقناكم مما خلقنا منه سائر الناس، فلا يدخل أحد الجنة إلا بالعمل الصالح؛ لأنكم سواء في الخلقة.

الثالث: الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين، فهو قادر على أن يعيدهم، كقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦] إلى آخر السورة.

(١) المذرة: القذرة. القاموس المحيط (م ذ ر).

﴿٤٠﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ معناه: أقسم، و«لا» زائدة.

﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ ذكرت في «الصافات»[1].

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤١﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ تهديد للكفار بإهلاكهم، وإبدال قومٍ خير منهم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: مغلوبين، والمعنى: إنا لا نَعجِز عن التبديل المذكور، أو عن البعث.

﴿٤٢﴾ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وعيد لهم، وفيه مهادنة منسوخة بالسيف.

﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة، بدليل أنه أبدل منه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور.

﴿٤٣﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُوفِضُونَ﴾ النَّصْب: الأصنام، وأصله: كل ما نُصب إلى الإنسان، فهو يَقصد إليه مسرعًا؛ مِن علَم أو بناء أو غير ذلك. وفيه لغات: فتح النون وإسكان الصاد، وضمهما، وضم النون وإسكان الصاد[2]. و ﴿يُوفِضُونَ﴾ معناه: يسرعون، والمعنى: أنهم يسرعون الخروج من القبور إلى المحشر، كما يسرعون المشي إلى أصنامهم في الدنيا.

(١) انظر تفسير الآية (٥).

(٢) قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم بضم النون والصاد، وقرأ الباقون بفتح النون وإسكان الصاد. وقرئ في الشاذ بضم النون وإسكان الصاد، وهي قراءة الحسن وقتادة. المحرر الوجيز (٨/ ٤١٤).

سورة نوح عليه السلام

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَاراً ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَاراً ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَاراً ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّاراً ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰراً ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ۝١٤ *أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ۝٢٠

۝١ ﴿أَنَ أَنذِرْ﴾ و﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ﴾ **يحتمل أن تكون** ﴿أَنْ﴾: مفسِّرةً، أو مصدرية على تقدير: «بأن أنذر» و«بأن اعبدوا»، **والأول أظهر**.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **يحتمل أن يريد** عذاب الآخرة، أو الغرق الذي أصابهم.

۝٤ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿مِّن﴾ هنا للتبعيض؛ أي: يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا؛ لأن الإسلام يَجبُّ ما قبله، ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم؛ لأن ذلك في مشيئة الله تعالى. **وقيل**: إن ﴿مِّن﴾ هنا زائدة، **وذلك باطل**؛ لأن «مِن» لا تزاد عنه سيبويه إلا في غير الواجب، **وقيل**: هي لبيان الجنس، **وقيل**: لابتداء الغاية، **وهذان قولان**

ضعيفان في المعنىٰ، والأول هو الصحيح؛ لأن التبعيض فيه متجه.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ظاهر هذا: يقتضي أنهم إن فعلوا ما أُمروا به أُخروا إلىٰ أجل مسمىٰ، وإن لم يفعلوا لم يؤخَّروا، وذلك مقتضَىٰ القول بالأجلين، وهو مذهب المعتزلة، وعلىٰ هذا حملها الزمخشري[1].

وأما علىٰ مذهب أهل السنة: فهي من المشكلات، وتأولها ابن عطية فقال: ليس للمعتزلة في الآية تعلُّقٌ؛ لأن المعنىٰ: أن نوحًا ﷺ لم يعلم هل هم ممن يؤخَّر أو ممن يعاجَل؟ ولا قال لهم: إنكم تؤخَّرون عن أجلٍ قد حان، لكن قد سبق في الأزل أنهم إمَّا ممن قُضي له بالإيمان والتأخير، أو ممن قضي له بالكفر والمعاجلة[2].

وكأنَّ نوحًا ﷺ قال لهم: آمنوا يظهر في الوجود أنكم ممن قُضي له بالإيمان والتأخير، وإن بقيتم علىٰ كفركم يظهر في الوجود أنكم ممن قُضي عليه بالكفر والمعاجلة، فكأنَّ الاحتمال الذي يقتضيه ظاهر الآية إنما هو فيما يُبرزه الغيب من حالهم؛ إذ يمكن أن يُبرز إمَّا الإيمان والتأخير، وإما الكفر والمعاجلة، وأما عند الله: فالحال الذي يكون منهم معلومٌ مقدَّر محتوم، وأجلهم كذلك معلوم مقدَّر محتوم.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ هذا يقتضي أن الأجل محتوم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وفي هذا حجة لأهل السنة وتقوية للتأويل الذي ذكرنا، وفيه أيضًا ردٌّ علىٰ المعتزلة في قولهم بالأجلين، ولما كان كذلك قال الزمخشري: إن ظاهر هذا مناقض لما قبله من الوعد بالتأخير إن آمنوا، وتأول ذلك علىٰ مقتضىٰ مذهبه بأن الأجل الذي لا يؤخَّر هو الأجل الثاني، وذلك أن قوم نوح قضَىٰ الله أنهم إن آمنوا عمَّرهم الله مثلًا ألف عام، وإن لم يؤمنوا عمرهم تسع مئة عام، فالألف عام هي التي لا تؤخر إذا جاءت، والتسع مئة عام هي التي وعدوا بالتأخير عنها إلىٰ الألف عام إن آمنوا[3].

(١) الكشاف (١٦/ ٢٩).
(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٤١٦).
(٣) الكشاف (١٦/ ٢٩).

﴿٧﴾ ﴿دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم، فذَكر المغفرة التي هي مسبَّبٌ عن الإيمان؛ ليظهر قبح إعراضهم عنه؛ فإنهم أعرضوا عن سعادتهم.

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ فعلوا ذلك لئلا يسمعوا كلامه، فيحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة، أو يكون ذلك عبارة عن إفراط إعراضهم حتىٰ كأنهم فعلوا ذلك.

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: جعلوها غِشاوة عليهم؛ لئلا يسمعوا كلامه، أو لئلا يراهم. ويحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة، أو يكون عبارة عن إفراط إعراضهم.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: داموا علىٰ كفرهم.

﴿٨﴾ ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ إعراب ﴿جِهَارًا﴾: مصدر من المعنىٰ، كقولك: قعد القُرْفصاءَ[1]، أو صفة لمصدر محذوف تقديره: دُعاءً جهارًا، أو مصدر في موضع الحال؛ أي: مجاهرًا.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ذكر أولًا أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهارًا، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غايةُ الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه.

قال ابن عطية: الجِهار: دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار: دعاء كل واحد علىٰ حِدَتِه[2].

﴿١١﴾ ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ ﴿مِّدْرَارًا﴾ :مِفْعَالٌ من الدَّرِّ، وهو كثرة الماء. وفي الآية دليل علىٰ أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار، ولذلك خرج عمر بن الخطاب ﷺ إلىٰ الاستسقاء فلم يزد علىٰ أن استغفر ثم انصرف، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: «والله لقد استسقيت أبلغ الاستسقاء»، ثم نزل المطر[3]، وشكا رجل إلىٰ الحسن الجدبَ، فقال له: استغفر الله[4].

---

(١) قال أبو عُبيد في غريب الحديث (١/ ٢١٠): «وَأما القرفصاء فَهُوَ أن يجلس الرجل كجلوس المحتبي وَيكون احتباؤه بيدَيْهِ يضعهما علىٰ سَاقيه كَمَا يحتبي بِالثَّوْبِ تكون يَدَاهُ مَكَان الثَّوْب».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٤١٧).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ٢٩٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٤٥)، وابن أبي شيبة (٨٤٢٩)، وعبد الرزاق (٣/ ٨٦)، وسعيد بن منصور (٥/ ٣٥٣)، والبيهقي (٦٤٢٣).

(٤) ذكره الثعلبي (٢٧/ ٣٨٨)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٨/ ٤١٧).

﴿١٣﴾ ﴿مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً﴾ **فيه أربعة تأويلات:**

أحدها: أن الوقار بمعنىٰ: التوقير والكرامة، **فالمعنىٰ:** ما لكم لا ترجون أن يوقِّركم الله في دار ثوابه. **قال ذلك الزمخشري،** وقوله: ﴿لِلهِ﴾ علىٰ هذا: بيان للموقِّر، ولو تأخر لكان صفة لـ﴿وَقَاراً﴾ [١].

الثاني: أن الوقار بمعنىٰ: التُّؤدة والتثبت، **والمعنىٰ:** ما لكم لا ترجون الله تعالىٰ متثبِّتين؛ حتىٰ تتمكنوا من النظر بوقاركم[٢]، وقوله: ﴿لِلهِ﴾ علىٰ هذا: مفعول دخلت عليه اللام، كقولك: «ضربت لِزيدٍ»، وإعراب ﴿وَقَاراً﴾ علىٰ هذا: مصدر في موضع الحال.

الثالث: أن الرجاء هنا بمعنىٰ الخوف، والوقار بمعنىٰ: العظمة والسلطان، **فالمعنىٰ:** ما لكم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، و﴿لِلهِ﴾ علىٰ هذا صفة[٣] للوقار في المعنىٰ.

الرابع: أن الرجاء بمعنىٰ الخوف، والوقار بمعنىٰ الاستقرار، من قولك: وقَرَ في المكان: إذا استقرَّ فيه، **والمعنىٰ:** ما لكم لا تخافون الاستقرار في دار القرار إما في الجنة أو النار.

﴿١٤﴾ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ أي: طورًا بعد طور، يعني: أن الإنسان كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، إلىٰ سائر أحواله. وقيل: الأطوار: الأنواع المختلفة، **فالمعنىٰ:** أن الناس علىٰ أنواع في ألوانهم وأخلاقهم وألسنتهم وغير ذلك.

﴿١٥﴾ ﴿طِبَاقاً﴾ ذكر في «**الملك**»[٤].

﴿١٦﴾ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ القمر إنما هو في السماء الدنيا، وساغ أن يقول ﴿فِيهِنَّ﴾ لأن القمر لما كان في إحداهن فهو في الجميع، كقولك: فلان في الأندلس كذا: إذا كان في بعضها. والشمس في السماء الرابعة، وقيل: في الخامسة. وجَعْل القمرِ نورًا والشمس سراجًا؛ لأن ضوء السراج أقوىٰ من النور، فإن السراج هو الذي يضيء فيُبصَر به، والنور قد يكون أقل من ذلك.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٣٤).

(٢) في أ: «يتمكنوا من النظر لوقارهم».

(٣) كذا في النسخ الخطية! ولعلَّ الصواب: «صلةً للوقار»، أي: لا تخافون عظمةَ لله. انظر: الكشاف (١٦/ ٣٥).

(٤) انظر تفسير الآية (٣).

﴿١٧﴾ ﴿وَاللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ هذه عبارة عن إنشائهم من تراب الأرض. و﴿نَبَاتٗا﴾: مصدر على غير الصَّدْر[1]، أو يكون تقديره: أنبتكم فنبتُّم نباتًا، ويحتمل أن يكون منصوبًا على الحال.

﴿١٨﴾ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ يعني: بالدفن.

﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ يعني: بالبعث من القبور.

﴿١٩﴾ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها. وأخذ بعضهم من لفظ البساط أن الأرض بسيطة غير كُرَيَّةٍ[2]، خلافًا لما ذهب إليه أهل التعديل، وفي ذلك نظر.

﴿٢٠﴾ ﴿سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ ذكر في «الأنبياء»[3].

(١) انظر التعليق عند تفسير الآية (٣٧) من سورة آل عمران.

(٢) في أ، ب، هـ: «كورية»، وفي المصباح المنير (ك ر ي): «والنسبة إليها [أي: إلى الكُرَة] كُرَيٌّ وَكُرَيَّةٌ على لفظها».

(٣) انظر تفسير الآية (٣١).

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ﴿٢٣﴾ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٤﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٥﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٦﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٩﴾

﴿٢١﴾ ﴿وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني: اتبعوا أغنياءهم وكبراءهم. وقرئ ﴿وَلَدُهُۥٓ﴾ بفتحتين، و﴿وُلْدُهُۥ﴾ بضم الواو وسكون اللام[1]، وهما بمعنىً واحد.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ الكبَّار -بالتشديد- أبلغ من الكُبَار -بالتخفيف-، والكبَار المخفف أبلغ من الكبير.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: وصَّىٰ بعضهم بعضًا بذلك.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ هذه أسماء أصنامٍ كان قوم نوح يعبدونها. وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا، فلما ماتوا صوَّرهم أهل ذلك العصر من حجارة، وقالوا: ننظر إليها لنتذكَّر أعمالهم، فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيم مَن بعدهم لتلك الصور، حتىٰ عبدوها من دون الله، ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها -وقيل: بل الأسماء فقط- إلىٰ قبائل من العرب، فكان ودٌّ لكلْبٍ بدُومة الجندل، وكان سواع لهذيل، وكان يغوث لمراد، وكان يعوق لهمْدَان، وكان نسرٌ لذي الكَلَاع من حمير[2]. وقرئ ﴿وُدًّا﴾ بفتح الواو وضمها[3]، وهما لغتان.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ الضمير للرؤساء من قوم نوح، والمعنىٰ: أضلوا كثيرًا من أتباعهم. وهذا من كلام نوح عليه السلام، وكذلك ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ من كلامه، وهو دعاء

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح الواو واللام، وقرأ الباقون بضم الواو وإسكان اللام.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قرأ نافع بضم الواو، وقرأ الباقون بفتحها.

عليهم. وقال الزمخشري: إنه معطوف على قوله: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ والتقدير: قال: رب إنهم عصوني، وقال: ﴿لاَ تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلاَّ ضَلَٰلًا﴾[1].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ هذا من كلام الله، إخبارٌ عن أمرهم. و«ما» زائدة للتأكيد، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضًا؛ ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النارَ إنما كان بسبب خطيئاتهم، وهي الكفر وسائر المعاصي.

﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ يعني: جهنم، وعبَّر عن ذلك بالفعل الماضي؛ لأن الأمر محقَّق. وقيل: أراد عرضهم على النار، وعبر عنه بالإدخال.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿دَيَّارًا﴾: من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال: ما في الدار دَيَّارٌ؛ أي: ما بها أحد، ووزنه: فَيْعَال، وكان أصله: دَيْوَار، ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء، وليس وزنه فَعَّال؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: دوَّار؛ لأنه مشتق من الدَّوْر أو من الدار.

وروي أن نوحًا عليه السلام لم يدع على قومه بهذا الدعاء إلا بعد أن يئس من إيمانهم، وبعد أن أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم[2].

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ يؤخذ من هذا: أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره، وكان والدَا نوح عليه السلام مؤمنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن لنوح أب كافر ما بينه وبين آدم عليه السلام، واسم والد نوح: لَمَكُ بن مُتَوَشْلِخ وأمه شَمخا بنت أَنوش، حكاه الزمخشري[3].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ قيل: بيته: المسجد، وقيل: السفينة، وقيل: شريعته، سماها بيتًا استعارة، وهذا بعيد، وقيل: داره، وهذا أرجح؛ لأنه الحقيقة.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٤٠-٤١)، وحكاه قبله الثعلبي (٢٧/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٣٠٨)، عن قتادة، وذكره الثعلبي (٢٧/ ٤٠٧) عن محمد بن كعب ومقاتل والربيع وابن زيد.

(٣) الكشاف (١٦/ ٤٤).

﴿وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ هذا دعاء بالمغفرة لكل مؤمن ومؤمنة على العموم، وفيه دليل على جواز ذلك، خلافًا لمن قال من المتأخرين إنه لا يجوز الدعاء بالمغفرة لجميع المؤمنين على العموم، وهذا خطأ وتضييق لرحمة الله الواسعة.

قال بعض العلماء: إن الإله الذي استجاب لنوح عليه السلام، فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفار، حقيقٌ أن يستجيب له فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات.

﴿تَبَارًا﴾ أي: هلاكًا.